فتح القسطنطينية

على يد الصليبيين

روبرت كلارى

ترجمها من الفرنسية القديمة وقدم لها

الدكتور حسن حبشي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

بكلية الآداب — جامعة عين شمس

الناشر

مركز كتب الشرق الأوسط

٤٥ شارع قصر النيل

ت : ٧٦٩٨٣

فتح القسطنطينية

على يد الصليبيين

روبرت كلاري

ترجمها من الفرنسية القديمة وقدم لها

الدكتور حسن حبشي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

بكلية الآداب — جامعة عين شمس

١٩٦٤

القاهرة
مطابع دار الكتاب العربي بمصر
(محمد حلمى المنياوى)

الإهداء

إلى روح أمى الغالية

تحية إخلاص وحب ووفاء اعترافاً بفضلها

ح.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لا يعرف التاريخ حرباً شنّها الغرب الأوربى تحت ستار الدين ثم كشف القناع عن حقيقة طواياه الاستعمارية مثل الحرب التى خرجت فيها أوربة عام ١٢٠٢ م بحجة إنقاذ المسيحية واستخلاص بيت المقدس ومحاربة مصر ، ثم غيّرت الحملة اتجاهها منذ البداية وأسفرت عن وجهها فهاجمت إمبراطورية الشرق النصرانية : وهى الامبراطورية البيزنطية .

وقد اغتنم مدبّرو هذه الحرب — التى نعتت فى التاريخ بالحملة الصليبية الرابعة — فرصة الحزن الذى ران على ممالك الغرب بعد ما لقيته من هزيمة منكرة على يد سلطان مصر والشام : صلاح الدين الأيوبى ، وأعلنوها حرباً شعواء على الشرق العربى الإسلامى ، وطبيعى أن يكون رجع الصدى قوياً فى نفوس العامة من الجماهير الأوربية التى كانت تدفعها الروح الدينية فاستجابت لدعوة بارونات فرنسا وهطعت لحمل السلاح ، وقدّم الكثيرون كل ما ادّخروه من الأموال لتحقيق الهدف الذى دعا إليه البارونات والأمراء ، وباركه البابا « إنوسنت الثالث » ، وبذل الواعظ الدينى «فولك دى نيللى» غاية جهده فى التبشير به ونعنى به استرجاع القبر المقدس وإزالة قوة مصر التى حمت الإسلام والشرق العربى أكثر من مرة من أن يكون قاعدة لمغامرين أوربيين أطمعتهم الحرب الصليبية الأولى وتفكك القوات

الإسلامية فى هذه المنطقة حينذاك فى أن يؤسسوا لهم إمارات على حساب القوى الإسلامية والعربية المبعثرة ، ولكنهم لم يتعظوا بما جرى لهم فى أعقاب حركة الإفاقة الإسلامية فى القرن الثانى عشر التى وضَعَتهم بين شِقَّىِ الرحى وكبحت جماح غلوائهم ، وأدَّت إلى أن يدرك هذا الشرق العربىّ — إدراكا تاماً صحيحاً — ضرورة اتحاد أقطاره لمواجهة الخطر الغربى المتسربل بسوح الدين .

ظهر على مسرح أحداث هذه الحرب من الشخصيات الهامة البابا « إنوسنت الثالث » وبعض البارونات الفرنسيين وأهمهم بونيفاس دى مونتفرات وبولدوين ثم دوقية البندقية .

أما الظروف العامة التى دعت إليها فهى الرغبة القوية فى محو العار الذى لحق بالغرب الأوربى على يد صلاح الدين فى الحرب الصليبية الثالثة ، ثم ما ترامى إلى سمع أوربة إذ ذاك من التنازع والشقاق بين أبناء صلاح الدين حول تقسيم الملك الضخم الذى يشمل مصر وجميع بلاد الشام وبعض نواحى شبه الجزيرة العربية ، وتأتّى لهذه الرغبة فى نفوس الغرب أن تجد مترجما شعبيا فى شخصية قسيس يدعى « فولك دى نيللى » الذى راح يذرع أرجاء مناطق فرنسا داعياً لتكتيل قواها وأمرائها وشعوبها ودفعهم لحمل السلاح لاستخلاص بيت المقدس من يد المسلمين والقضاء على مصر .

وكان على كرسى البابوية فى رومة إذ ذاك « إنوسنت الثالث » الذى تولى ع ش البابوية مدة تسع عشرة سنة (١١٩٨ — ١٢١٦ م) والذى جمع بين السياسة والدين ، إذ قلّ أن نجد بلداً أوربياً خلى من تدخله فى شئونه بما يبدو له أنه للصالح العام ، والواقع أن « إنوسنت » — مهما

اختلف الرأى فيه — كان يؤمن إيماناً جازماً بوجوب سيطرة الكنيسة على السياسات الداخلية والخارجية فى الأقطار الأوربية ووجوب معالجة المشكلات السياسية وفق مخطط تضعه لها الكنيسة ، وكان « إنوسنت » كبير الاعتزاز بالبابوية شديد الثقة فى قدرتها على حل جميع المشكلات التى تعترض الحياة الأوربية ، ولعل هذا الاتجاه من «إنوسنت» نفسه كان سبباً فى قيام مشكلات ما كان لها أن توجد لولا تدخله الذى لم يكن له ما يبرره فى كثير من الأحيان سوى طمعه ، وقد عاونته — على هذا — حدة خلقه وتبوّؤه الكرسى البابوى فى سن غضة إذ لم يكن يجاوز السابعة والثلاثين من عمره حين اعتلائه إياه ، كما أنه كان شديد الإيمان بما يمكن أن تؤديه البابوية من خدمة للعالم المسيحى الغربى وللمسيحية عامة ، وكان يرى — على حد قوله — « أنه لما كان السيد المسيح قد أقام حاكماً واحداً فحسب يهيمن على كل شىء وجعل من هذا الحاكم نائبه العالمى ، ولما كان كل من فى السماء والأرض يجثو أمام المسيح فإن طاعة نائبه فريضة لازمة على الجميع » ، ولقد أملَتْ عليه هذه الروح أن يعتبر نفسه صاحب الحق الأعلى فى تولية الملوك والأباطرة ورسم سياستهم التى يسيرون وفقها ، وقلّ أن نجد قطراً فى أوربة فى ذلك الحين لم تتأثر أحداثه بتوجيهات البابا « إنوسنت » الثالث ؛ وإذا كان قد استهل أعماله بتنظيم الكنيسة داخلياً وتدعيم نفوذها وسلطانها فى رومة ذاتها فإنه قد عمد إلى فرض نفسه حامياً للعرش الصقلىّ كما تدخل فى إثارة الفتن المحلية فى بعض الولايات الإيطالية ضد الإمبراطورية الرومانية ، ثم ما كان بعد ذلك من تدخله العنيف فى مسألة وراثة العرش فى ألمانيا ونصرته فريقاً ضد فريق ممّا أدى إلى إضرام نار الفتنة الأهلية بها وإهراق الدماء وإن انتهى الأمر

أخيراً بتولى خصمه «فيليب دى سوابيا» الذى كان له دخل كبير — وإن يكن غير صريح — فى إفساد خطة الحملة الصليبية الرابعة ، ذلك لأن ألمانيا عملت جهدها على مضايقة البابا إنوسنت الثالث ، ولم تجد أمراً أشد إيذاءً له من أن تأخذ على عاتقها — عن طريق صنائعها — مهمة القضاء على حلمه الذى راوده وداعب خياله ، ونعنى به استرداد بيت المقدس وضربَ القوة المصرية الإسلامية ، كذلك ورث « فيليب دى سوابيا » عن أخيه الإمبراطور هنرى الرابع فكرة محاربة بيزنطة ، تلك الفكرة التى لم تكن تُقابَل بالترحيب من البابا إنوسنت الثالث رغم ما كان يدعيــــه دعاتها من أنها ستؤدّى إلى ضم الكنيسة الشرقية إلى كنيسة روما .

فما هى أحوال بيزنطة حينذاك ؟

الواقع أن بيزنطة كانت تمرّ إذ ذاك بفترة عصيبة فى تاريخها عميقة الجذور ترجع إلى الأيام الأولى عقب نجاح الصليبيين فى بلاد الشام فى مستهل القرن الثانى عشر ، إذ كان ذلك النجاح إيذاناً بظهور خطر جديد على الإمبراطورية البيزنطية وهو تدفق سيل المغامرين الغربيين على الإمارات التى اغتصبها بنو جلدتهم فى الشام ، وازدياد قوة هؤلاء الدخلاء الحربية بالإمدادات الأوربية فى الوقت الذى أخذت فيه بيزنطة فى الانحلال الذى تمثل فى المنازعات والمؤامرات الأسرية وتدهور التجارة وضياعها من يديهـا من جراء ظهور الجمهوريات التجارية الإيطالية كالبندقية وجنوة وبيزة التى وجدت كلها — وعلى الأخص الأولى — ترحيباً بسفنها فى موانى الشام الصليبية كعكا

التى فاقت أهميتها حينذاك أهمية القسطنطينية ذاتها واستطاعت أن تزحزحها عن مكانتها التى كانت لها من قبل مما أدى إلى قلة ملحوظة فى دخل الخزينة الإمبراطورية ، هذا بالإضافة إلى ما كان قد أغدقه الإمبراطور « ألكسيوس كومنين » عام ١٠٨٢ م من امتيازات تجارية فى بلاده على البنادقة والبيازنة ، وقد كان لهذه الامتيازات عواقب وخيمة سوف يتكشف عنها المستقبل ، غير أن الدولة نعمت بشىء من الرخاء النسبى واستقرار الأمور حين مات « ألكسيوس كومنين » عام ١١١٨م وتولى ابنه « يوحنا الثانى » الذى استمرت فترة حكمه زهاء ربع قرن من الزمان ، والذى اتسم عهده بالهدوء لولا مؤامرات أخته « أنَّا » المؤرخة وأخيه « إسحق » ، بيد أن هذه المؤامرات لم تكن من الخطورة بالدرجة التى تقض مضجعه أو تضطرب معها الأمور بدرجة تنذر بالخطر ، إذ استطاع « يوحنا » الخروج منها سالماً ، وكان هذا الإمبراطور كبير القلب حليماً فوسعت رحمته توبتهما ، لكنه كان إلى جانب ذلك فارس حرب ورجل سيف خارب فى جبهات متعددة وضد أعداء خارجيين مختلفين ما بين أرمن وسلاجقة ومجريين ، بل إنه رد للإمبراطورية البيزنطية جزءاً من اعتبارها أمام الصليبيين حيث استطاع أن يحمل « ريموند » صاحب أنطاكية على الاعتراف بتبعيته له ، إلا أنه عجز عن مقاومة البنادقة ولم يقدّر له النجاح فى محاولته سلب ما بأيديهم ، وعلى أية حال فقد أعاد لبيزنطة هيبتها وردّ لها كرامتها وحمل الأوربيين الصليبيين على إدخال بأسه فى حسابهم فلم يعودوا يفكرون حينذاك فى إنزال الضربات بها بل خافوه وأدركوا أنه لابد منتقم منهم بإزالة قوتهم من بلاد الشام ، ومن ثم تنفسوا الصعداء حين لاقى مصرعه عام ١١٤٣ م فى أثناء خروجه للقنص وكان رياضته المحببة إلى نفسه .

ثم خلفه ابنه «مانويل» الأول الذى طالت سنوات حكمه حتى قاربت سبعا وثلاثين ، وكان أوربىّ الطابع والنزعة ، ولوعاً بكل ما هو غربى فاتجه ببصره وعواطفه عبر البسفور فأحكم صلاته بالغرب عن طريق الزواج ، إذ كانت امرأته الأولى الأميرة « برتا » أخت «كونراد» الثالث إمبراطور ألمانيا ، ثم من بعدها الأميرة « مارى » الأنطاكية ، وقد أنجب مانويل ابنة صاهره عليها « المركيز دى مونتفرات » وعقد لولده « ألكسيوس » على ابنة لويس السابع ملك فرنسا ، ولم يبق فى نفسه من الروح البيزنطية سوى الكراهية للبندقية لخارجها ، فلما فشل فى الظهور عليها حاول دفع الخطر بخطر آخر حيث عطف على منافستها التجارية « جنوة » فزاد الطين بلة ، ومن ثم خلف فى سنة ١١٨٠ تركة مثقلة لإبنه الصبى « ألكسيس » الثانى الذى حاولت أمه الوصية الأميرة « مارى الأنطاكية » أن تنهض بهذا العبء فلم تسعفها طبيعتها ولم تصادف من يمد لها يد العون فيما ألقى على كتفيها ، بل وجد أصحاب المطامع فى العرش من بيت كومنين ذاته الفرصة مواتية لنيل مآربهم ، فما انقضى عامان على قيامها بالوصاية على ابنها حتى دبر « أندرونيكس كومنين » مؤامرة لإقصاء الأميرة وتولى هو بدلا منها رعاية الإمبراطور الغلام ، ثم مالبث أن اغتصب العرش لنفسه وأقام من نفسه إمبراطورا ، إلا أن توليه الأمر مستقلا كان إيذاناً بسلسلة من المؤامرات والثورات التى اندلعت فى ولايات الإمبراطورية ، وأغرى ضعف بيزنطة بها خصومها التقليديين وهم النرمان فوثبوا على سالونيك واقتطعوها لأنفسهم ، وجرت أحداث دامية انتهت بالفتك بأندرونيكس على يد الشعب اليونانى وحل محله « إسحق أنجيلوس » سنة ١١٨٥ م .

اتسم عهد إسحق بأنه العهد الذى وصلت فيه الإمبراطورية إلى الحضيض فقد انهار ميزانها الاقتصادى وفشت فيها الرشوة ودب الفساد فى الجهاز الحكومى وأصبحت الوظائف سلعاً تباع وتشترى وتساق لمن يدفع أكبر قسط من المال فى الحصول عليها دون نظر إلى الكفاءة والتدريب والمقدرة ، وأسرف الإمبراطور فى بناء الكنائس وتشييد القصور دون رعاية لما لديه من الأموال ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل شبت الثورات ضد الدولة فى بعض النواحى لا سيما فى بلغاريا التى اضطرمت نيران الثورة الاستقلالية فيها بعد استكانة طالت مدة قرنين من الزمان ، فكان تخلصها من سيطرة القسطنطينية ضربة قاصمة لهيبتها ، وقد ضج الشعب من حكم إمبراطوره الجديد مما أدى إلى قيام « ألكسيوس انجلوس » - أخى الإمبراطور - بثورة عليه أحكم توقيتها حيث استغل فرصة انشغاله فى محاربة البلغار وقام بإذكاء نيران الفتنة ، ونجح الثائر الجديد فى إقصاء أخيه عن العرش ثم سمل عينيه وزج به فى عام ١١٩٥ م فى أحد الأديرة ليقضى البقية الباقية من أيامه يجرع مرارة الفساد الذى لم يفكر فى محوه .

أما الثائر المنتصر فقد نصب نفسه إمبراطوراً عُرف بألكسيوس الثالث إلا أنه لم يتّعظ بما جرى لأخيه وأسكرته نشوة الظفر فأنسته مأساة الماضى القريب فاصطنع الفئة التى عاونته فى وثبته وأغدق عليها الأموال التى ابتزها من الشعب فضعف سلطان الحكومة فى الداخل وضاعت هيبتها فى الخارج حتى لقد ارتضى الإمبراطور ألكسيوس الثالث المهانة فى قبوله دفع جزية لصد هجمات الغرب ، وأفصح هنرى السادس — إمبراطور ألمانيا الشاب — عن نواياه فى الاستيلاء على بيزنطة ،

وكاد هنرى أن ينجح فى مشروعه الخطير هذا لولا أن أصابته حمى عنيفة لم تغادره إلا وقد ودع الحياة ، فكان موته راحة لألكسيوس الثالث وإنقاذاً له ، لكن إلى حين .

* * *

فى هذه الظروف القاتمة التى تحيط بالإمبراطورية البيزنطية ظهرت فكرة الحرب الصليبية الرابعة .

رضى البابا عن دعوة « فولك دى نيللى » التى جمعت حوله حشداً كثيفاً من أهل فرنسة ذلك العصر وإقليم شمبانيا كما انضم إليها جماعة من ذوى المكانة والنفوذ أمثال ثيبوت كونت شمبانيا الذى كان من أثرى الأمراء الذين أيدوا الدعوة لأسباب خاصة لديه حتى لقد انعقد الإجماع على اختياره قائداً عاماً للحملة ، كما انضم إليها أيضاً « لويس دى بلوا » و « جوفرى دى فلها ردوان » الذى أرّخ الحملة من وجهة نظر هؤلاء الزعماء ، و « بلدوين التاسع » كونت « فلاندر » وأخوه « هنرى دى هنيوت » مع أتباعهما ، واستغرقت هذه التجمعات والتكتلات مدة عامين تقريباً (١١٩٩ — ١٢٠٠ م) ، وعقد هؤلاء المحاربون الفرنسيون اجتماعات عدة لتنسيق خطة الحملة ، وقرروا منذ الاجتماعات الأولى اختيار ثيبوت كونت شمبانيا قائداً للحملة المزمع إرسالها إلى مصر ، وكان اختياره بالإجماع إدراكا لما هو عليه من روح دينية قوية إلى جانب ثروته الضخمة التى وقفها كلها على الصالح الصليبى .

لم يبق بعد ذلك سوى رسم الطريق الذى تسلكه الحملة : أيكون عبر البر أم البحر ؟ ، وانتهى الأمر أخيراً بالزعماء إلى إيثار الطريق البحرى

حتى يستطيع الفرسان الوصول إلى طيتهم دون مشقة ولكى يتجنبوا ما لقنتهم إياه أحداث الحملة الصليبية الأولى على وجه الخصوص من التصادم الذى لا مفر من حدوثه بين المحاربين الصليبيين وبين مسيحيى النواحى التى يمرون بها .

هنا تلفّت الصليبيون عن السفن فقرّ قرارهم على الاتصال بالبندقية التى كان لها أكبر أسطول فى البحر الأبيض المتوسط ، فبعثوا سفارة من ستة أشخاص على رأسهم مؤرخ الحملة الرسمى فلها ردوان الذى توجه بالسفراء إلى البندقية واتصل بدوجها هنرى داندولو ، وأمضى الطرفان اتفاقية فى مارس ١٢٠١ تعهد البنادقة بمقتضاها بإعداد أسطول لنقل ٤٥٠٠ فارس وتسعة آلاف مقاتل وعشرين ألف جندى من المشاة ، وأن تقوم البندقية إلى جانب ذلك بتموينهم مدة تسعة أشهر ، وتعهد الصليبيون من جانبهم أن يدفعوا ٨٥٫٠٠٠ مارك ، ووافق البابا على هذه الاتفاقية بعد تردد ، وبعد أن اشترط وجود نائب عنه فى الحملة وألا تشهر الحملة سيفاً فى وجه أية فئة مسيحية : كاثوليكية كانت أم أرثوذكسية .

على أن البندقية — لسبب لا نعلمه على وجه الدقة — رأت أن تساهم فى هذه الحرب إلى جانب الصليبيين الغربيين بمجموعة أخرى من السفن تقوم هى بنفقاتها ، على أن تكون الغنائم والأسلاب والفتوح مناصفة بينها وبين « الحجاج » المسيحيين .

وتم الاتفاق على أن تكون التجمعات الحربية من الرجال والخيول ودواب النقل وآلات الحرب فى البندقية حيث تبحر منها سفن الأسطول المقاتل فى موعد غايته ٢٦ يونيو ١٢٠٢ وكان الغرض من

التجمع فى البندقية بالذات وهو ضمان البندقية أن تقسلم من الصليبيين المسافرين إلى الشرق فيما وراء البحار المبلغ المتفق عليه بينها وبينهم .

غير أن البعض آثروا السفر إلى بلاد الشام من جهات وموان أخرى غير البندقية مما أدى إلى عدم تمكن الصليبيين من دفع كل المبلغ المطلوب ، وزاد الطين بلة أن مات فى مايو ١٢٠١ م « ثيبوت كونت شمبانيا » الذى كان أكبر ممول للحملة مما أدى إلى عدم حصول الصليبيين على كل القدر الذى وقفه « ثيبوت » للصرف على الحملة ، فاضطربت خطتهم وتعقدت الأمور عليهم لا سيما بعد أن رفض اثنان من كبار الكونتات ما عرضه الصليبيون عليهما من الحلول مكان ثيبوت الراحل فى قيادة الحملة ، وحينذاك تقدم فلهاردوان باقتراح تنصيب بونيفاس مركيز دى مونتفرات فى القيادة ، فتم الأمر وفق ما أشار به رغم كراهية عدد غير قليل من الزعماء للمركيز .

ولما جاء الوقت المحدد لخروج الحملة من جزيرة سنت نيكولادى ليدو بالبندقية كان العدد المجتمع دون المتفق عليه مما أدى إلى عجز الصليبيين عن الوفاء بكل المبلغ المطلوب ، وهنا وجدت البندقية الفرصة ملائمة لاستغلال الحملة فى تحقيق أهدافها الخاصة ، فعرضت استعدادها لتأجيل دفع بقية المبلغ المطلوب لها (وقدره ستة وثلاثون ألف مارك) إذا قبل الصليبيون مساعدتها فى استرداد مدينة « زارا » الواقعة على ساحل دالماشيا من يد ملك المجر المسيحى ، ولم يجد « الحجاج المسيحيون » غضاضة فى قبول هذا الشرط الذى يتنافى روحا وشكلا مع الفكرة التى كان مفروضاً عليهم ترجمتها فى صورة عملية ألا وهى تخليص بيت المقدس لتأمين المسيحيين ، وهكذا استهلت الحملة الصليبية خطتها بقتال أهل الصليب أنفسهم .

وما كاد البابا إنوسنت الثالث يعلم بهذا الاتجاه العكسى لأهداف الحملة حتى غضب وثار وراح يهدد الصليبيين بما فى قدرته من إصدار قرار الحرمان الكنسى ضدهم ، إلا أن المحاربين الأوربيين لم يعبأوا بهذا التهديد وحاصروا مدينة زارا التى سقطت فى أيديهم بعد حصار دام إثنى عشر يوما من ١٣ إلى ٢٤ نوفمبر ١٢٠٢ .

ربما قال قائل إن قتال زارا كان حادثاً عارضاً ، وربما توقع المرء أن تتابع الحملة مسيرها للهدف الذى أعلنته فى أوربة الغربية من أنها نهضت لخدمة الدين وقتال المسلمين فى مصر وبلاد الشام ، غير أن الأطماع الشخصية والأهداف الواقعية عند قادة الحملة ما لبثت أن كشفت القناع عن نفسها حين اتجه المحاربون للهجوم على القسطنطينية النصرانية . والواقع أن الحملة استغلت أحداث بيزنطة الداخلية إذ ذاك من منازعات بين المتطلعين للعرش ، وتجلت هذه المنازعات واضحة حين قام ألكسيوس المعروف فى التاريخ بألكسيوس الثالث بخلع أخيه اسحق الثانى انجيلوس إمبراطور بيزنطة ، ولم يكتف بذلك بل نهج نهج الثائرين البيزنطيين فسمل عينيــه وزج به وبابنه ألكسيوس (المعروف بالرابع) فى الحبس ؛ غير أن هذا الأخير — وكان شاباً — استطاع الفرار من سجنه والتجأ إلى زوج أخته فيليب دى سوابيا إمبراطور ألمانيا الذى رأى الفرصة مواتية لتحقيق أمنيته الموروثة وهى محاربة بيزنطة ، فدبر أمر الاتصال بين ألكسيوس الرابع والصليبيين ، وقيل إن هذا الاتصال تم بواسطة بونيفاس مركيز دى مونتفرات الذى كان إذ ذاك فى بلاط فيليب والذى وقع عليه الاختيار — كما قلنا — فى قيادة الحملة بعد موت ثيبوت كونت شمبانيا .

كان هم « ألكسيوس » الرابع التربع على العرش بأية وسيلة : كريمة كانت أم مستهجنة ، والغاية عنده تبرر الواسطة ، لذلك طلب من الصليبيين مساعدته على محاربة عمه على أن يولوه الحكم مكانه ، ووعدهم إزاء ذلك بدفع ٢٠٠٠٠٠ مارك فضى ، كما أخذ على نفسه عهداً بأن يعلن تبعية الكنيسة الشرقية للغربية ، ويرسل عشرة آلاف جندى بيزنطى معهم فى محاربتهم المسلمين واستخلاص بيت المقدس .

رأى الصليبيون فى عروض « ألكسيوس » الرابع فرصةً لتحقيق مآربهم الخاصة ، إذ نظر إليها القادة الفرنسيون والفلندريون على أنها وسيلة عملية لإقامة إمارات لاتينية لهم ، على حين أن البندقية عالجت نتائجها من وجهة نظرها التجارية وما تستطيع أن تحصل عليه من امتيازات جديدة فى هذا الميدان ، لذلك اتفقوا جميعاً فى يناير ١٢٠٣م على قبول هذه العروض .

لعل الصليبيين — أو كبارهم على الأصح — رأوا فى تحقيق وحدة الكنيستين ما يرضى البابا ويحقق حلمه ، إلا أن الواقع هدم هذا الظن حين أعلن « إنوسنت الثالث » مرة أخرى معارضته للزحف على بيزنطة النصرانية ، وهنا كان لابد « لجند المسيح » أن يختاروا بين أحد أمرين : إما الانصياع إلى مايريده البابا وهو الانصراف عن محاربة القسطنطينية : الأمر الذى يحتمه عليهم حملهم السيف لمحاربة المسلمين ، وإمّا المضى فى إرضاء ألكسيوس الرابع وفى ذلك تحقيق لأهدافهم ومطامعهم الشخصية الفردية واستهانة بالبابا وهو مَن هو فى مكانته الدينية فى العالم المسيحى .

غير أن حقيقة الحرب الكامنة فى نفوسهم برزت جلية للعيان ،

فأبحروا شطر القسطنطينية وراحوا يقاتلون من تعرّض لهم من المسيحيين حتى بلغوا يوم ١٧ يوليو ميناءها ، وما لبث ألكسيوس الثالث أن هرب تاركا الشعب يواجه هجمات المغيرين الذين رجحت كفتهم فدخلوا المدينة منتصرين وأجلسوا على العرش إسحق الثانى وإلى جانبه ابنه ألكسيوس الرابع شريكا له ، وحينذاك طالب الصليبيون الإمبراطور بالوفاء بالشروط المبرمة بينهم وبين ابنه الشاب ، وكانوا يعلمون تمام العلم عجز الإمبراطور عن سداد هذا المبلغ الضخم ، لاسيما والخزينة خاوية ; وبذل ألكسيوس الرابع — الذى انفرد فى الواقع بالعرش دون أبيه — غاية جهده حتى استطاع جمع مائة ألف مارك دفعها لحماته الصليبيين ، تناصفوها هم والبندقية ، ثم عادوا فدفعوا منها للبنادقة مبلغ ال ٠٠٠ ر ٣٦ مارك التى كانت متأخرة عليهم منذ أن تجمعت قواتهم فى جزيرة الليدو .

وبلغت المهانة بالإمبراطور - الذى لم يكن يعنيه إلا عرشه - حدا طلب معه من الصليبيين — وقد حان موعد رحيلهم — البقاء حتى يتم له فتح مناطق الإمبراطورية ويجمع لهم ما تبقّى من دين ، رغم ما فى ذلك من إرهاق للشعب الذى كان كارهاً للمحتلين الذين جاءوا تحت ستار حمايتهم العرش ، كما كان الشعب كارهاً للإمبراطور الذى استعان بهذه القوة الدخيلة ضد أهل بلده .

سرعان ما برهنت الأحداث على عجز الإمبراطور ألكسيوس الرابع عن الوفاء بتلك الالتزامات المهينة ، وأدرك ألاّ نجاة له من نقمة الشعب الحر الثائر ، فانقلب على معاونيه الصليبيين ، لا إحساساً منه بشعور الوطنية والكرامة ، ولكن تحت ضغط الظروف . وجرت حوادث جمة من القتال

بين الطرفين الحليفين ، غير أن الشعب ما لبث أن أطاح بالإمبراطور الخائن وأبيه ، وولى أمره لبعض الكارهين للمحتل الأجنبي الغربي الذى راح يطالب بالثأر لألكسيوس الرابع أو « الإمبراطور الشرعى » على حد قول الدخلاء الكاذب ، ثم تطورت الأمور تطوراً فى صالح القوة الغاشمة فانتصرت مؤقتاً على الشعب الأعزل وانتهى الموقف بإزالة الإمبراطورية البيزنطية وإقامة إمبراطورية لاتينية فى مايو ١٢٠٤ تقاسمها الصليبيون الغربيون والبنادقة فيما بينهم ، واعتلى عرشها بلدوين كونت فلاندر ، وانهزم أمامه بونيفاس مركيز دى مونتفرات الذى يستشف من المصادر التاريخية طمعه الشديد فى العرش ، بعد أن بذل ترتيبات جمة لتغيير سير الحملة منذ توليه قيادتها ، وقد أغضب هذا الأمر المركيز فأنكر على بلدوين ما صار فى يده ودبت الشحناء بينهما ، وان انتهت باسترضائه وإقطاعه مقاطعة تسالونيكا القريبة من البحر .

وقد ظلت هذه الإمبراطورية اللاتينية مدة تقرب من نصف قرن لم تلق فيها شيئاً من الهدوء أو الاستقرار ، فما كان لشعب اليونان أن يسكت على الضيم وضياع استقلاله .

هذا استعراض سريع للحملة الصليبية الرابعة التى هى موضوع مذكرات روبرت كلارى الذى كان شاهد عيان لها .

* * *

على أنه تبقى بعد ذلك عدة أسئلة لازالت فى حاجة إلى جواب حاسم ، إذ من الذى بدّل سير الحملة من مصر والشام إلى القسطنطينية ؟ وهل كان هناك اتفاق سابق بين زعماء الحملة والبندقية لم يعلم به جمهور المحاربين بغية هذا التبديل الشامل ؟

إن انحراف هذه الحملة ـ المنعوتة بالصليبية ـ عن الهدف المفروض فيها أساسيا كان ولا يزال موضع بحث ونقاش ، فإن حربا يدعو لها البابا لاشك أن مقصدها الرئيسى يتركز فى استخلاص بيت المقدس ومحاربة المسلمين حسب مفهوم روح هذا العصر وطبيعته ، أما أن تتجه الحملة « المسيحية » لمحاربة بلد « مسيحى » — وهو بيزنطة — فأمر يبعدها تماما عن غرضها ويدل على استغلالها لتحقيق أهداف أخرى غير دينية وغير روحية ، ومن ثم فإنه لابد من التفتيش عن دوافعها فى نواح بعيدة عن الدين .

ولقد تستر كبار زعماء الحملة فأخفوا بيان وجهتها الواقعية ، ويدل على ذلك قول فلهاردوان — المؤرخ الآخر للحملة — حيث يشير إلى خروجها إلى «ماوراء البحر » وهى عبارة يكتنفها الغموض ، إذ قد تعنى « فلسطين » عند الحجاج المسيحيين ، وهى قد تعنى مصر عند البنادقة ، ولكنها حسب نتائجها كانت تعنى — فى أذهان القادة — « بيزنطة » .

ومما يدل على أن الاتجاه الأخير كان الاتجاه الحقيقى هو ما انتهت إليه الحملة ، ثم ماتدل عليه بعض الأحداث التى صادفتها والتى تبدو أنها جاءت عفواً لكنها فى الحقيقة كانت وفق تدبير سابق وخطة مرسومة اشتركت فى وضعها ألمانيا من ناحية وفرنسا والبندقية من ناحية أخرى ، وكانت الأولى ممثلة فى صنيعتها المركيزدى مونتفرات الذى ساق إليه كبار الصليبيين من المدنيين زعامة المحاربين وقيادتهم بعد موت ثيبوت كونت شمبانيا ، والذى كانت بيزنطة تشغل حيزاً غير ضئيل من تفكيره وجهده فيما تنطوى عليه نفسه من حقد عليها ورغبة فى زلزلة إمبراطوريتها لتتمكن له الأمور بها .

* * *

ثم هناك مسألة أخرى جديرة بالالتفات هى إحكام وقت ظهور ألكسيوس بن إسحق الذى عرف فيما بعد بألكسيوس الرابع ، وكان ظهوره عقب سقوط زارا فى يد الصليبيين تحت إلحاح البندقية وتوجيهها ، وكان المتوقع حينذاك ـ وقد أوفى الصليبيون بعهدهم فى مساعدتها فى احتلال زارا ـ أن تتجه الحملة مباشرة إلى غرضها الذى قيل إنه خرجت من أجله ، والذى كان احتلال زارا حادثاً عارضاً له ، ذلك أن ظهور ألكسيوس فى هذا الوقت بالذات لم يكن وليد الصدفة البحتة فقد كشف كلارى القناع عن أن مجيئه كان بتدبير من زعماء الحملة ، إذ يقول إنه هو الشخص « الذى سوف يرسل الصليبيون والبنادقة فى طلبه استجابة لنصيحة زعيمهم المركيز دى مونتفرات » ، فإن ماجرى فى أعقاب ذلك من توجيه السيوف نحو القسطنطينية والعروض السخية التى بذلها هذا الإمبراطور لدليل قاطع على أن خطة معينة رسمت لاحتلال بيزنطة ، ولا عبرة بما قطعه على نفسه من تكريس قوات الإمبراطورية المساهمة جنباً إلى جنب مع الحجاج المسيحيين فى تحقيق هدفهم الصليبى ، وكل هذا ينفى عامل الصدفة ويبرىء المصادفات من أن تكون هى المسئولة عن تلك المقابلة التاريخية ، بل إن ذلك ليدعونا إلى التساؤل عما إذا كان الغرض منها بيزنطة وحدها أم ضرب النفوذ البابوى ، وذلك بتوجيه السيوف المسيحية ضد شعب مسيحى شرقى ، ولعل هذا الجانب الآخر تفسره أجلى تفسير أعمال الصليبيين أنفسهم عقب هذا الفتح الذى لم يعبأ بالوازع الدينى الذى كان يحرك الجموع الشعبية التى سخر منها الأمراء والإقطاعيون كما سخروها لتحقيق مآربهم الشخصية .

ولعل البندقية كانت المحرك الأكبر لهذه الأطماع الشخصية بدافع مصلحتها

الذاتية ورغم محاولات فلهاردوان فى مذكراته[1] فى تبرئة ساحة البندقية ودوجها هنرى داندولو ، إلا أن الواقع وخطوات الحملة منذ البداية تشير إلى أنها كانت مسئولة عن تغيير خطة السير ، ولا عبرة هنا بما يحاوله المؤرخ الصليبى « إرنول » من أن سلطان مصر إذ ذاك قد أغرى البندقية بالأموال والهدايا والامتيازات التجارية بتغيير سير الحملة .

* * *

أما الكتاب التالى لهذه المقدمة فهو مذكرات كتبها أحد الفرسان وإن لم ترْق به مكانته أو أصله إلى تولىّ وظائف خطيرة أو أن توكل إليه مهمة ضخمة فى تلك الحرب ، أى أنه كتاب يمثل الناحية الشعبية ويفصح فى جلاء ما بعده من جلاء كيف أن كبار الرجالات الذين دبّروا أمر هذه الحرب كانوا يؤلفون من بينهم عصبة اتفقت على أن تخفى عن جمهور المحاربين النصارى من العامة حقيقة ما ترمى إليه ولكنها استغلت الجانب الدينى عندهم فعمدت إلى الكذب عليهم والتضليل بهم حين ادّعت أنها تهدف إلى استخلاص القبر المقدّس ، وإلى جعله فى يد الغرب الأوربى ليكون سبيل الحج إلى تلك البقعة الطاهرة مأموناً ، ولا شك أنه كان لا بد لمثل هذه الدعوة — فى مثل ذلك الوقت — من أن تجد استجابة طيبة وحماسة بالغة فى نفوس العامة ، أما حقيقة الواقع الذى أخفته شرذمة محركى هذه الحرب فتتلخص فى الاستيلاء على بقاع جديدة لتقيم إمارات ودولاً لحسابها الخاص ، حتى ولو كان ذلك على حساب المسيحيين أنفسهم ، أى أنها اتخذت من الدين معواناً لها .

وتعتبر هذه المذكرات التى نترجمها لأول مرة إلى العربية وثيقة

---

(١) لقد ترجمنا هذه المذكرات وهى معدة للنشر .

دقيقة من وثائق تاريخ هذه الفترة التى تمثل فى جوهرها البذور الأولى لفكرة الاستعمار الغربى للشرق الإسلامى والمسيحى على السواء .

ولدينا عن هذا الغزو الغربى للإمبراطورية البيزنطية ثلاثة أسفار معاصرة هى :

١ — مذكرات فلهاردوان .

٢ — تاريخ القسطنطينية لجونتر .

٣ — مذكرات روبرت كلارى .

أما الكتاب الأول الذى سنقدمه مستقلا فى ترجمته العربية فى مجلد مستقل فقد وضعه « جوفرى فلهاردوان » مارشال شمبانيا وأحد كبار زعماء الحملة الصليبية الرابعة التى غزت القسطنطينية ، وقد ساهم بنفسه فى المفاوضات التى سبقت التأهب لها ، بل إنه كان على رأس الوفد الذى أمضى — نيابة عن الصليبيين — إتفاقية مارس ١٢٠١ م مع البنادقة ، كذلك اشترك فلهاردوان فى الاتصال بالزعماء المختلفين ، هذا بالإضافة إلى أنه هو الذى رشح « بونيفاس مركيز دى مونتفرات » لقيادة الحملة إثر موت « ثيبوت الثالث » كونت شمبانيا ، كما كان حلقة الاتصال بين الإمبراطور بلدوين وبونيفاس دى مونتفرات حين تعقدت الأمور بينهما بعد تقسيم التركة البيزنطية بين زعماء الحملة الصليبية ، ثم آل أمره فى النهاية لأن يكون « مارشال رومانيا » أى الإمبراطورية البيزنطية القديمة كلها .

وقد كتب فلهاردوان مذكراته منذ مراحل التفكير فى الحملة حتى قيام الإمبراطورية اللاتينية ، وإن لاحظنا فيها دفاعه الكبير عن البندقية وامتداحه الكثير لمواقف دوجها هنرى داندولو ، وقد حوى

كتابه الدعائم الأساسية لكتابة تاريخ تلك الحركة الحربية .

☆ ☆ ☆

وأما الكتاب الثانى « تاريخ القسطنطينية » Historia Constantin-opolitana فقد ألفه أحد الرهبان فى منطقة الإلزاس واسمه جنتر Gunther ، ولم يكن المقصود فى البداية من تأليفه إياه أن يكون تاريخاً للحملة بقدر ماهو دراسة للآثار المقدسة والمخلفات الدينية للشهداء والقديسين مما استحضره معه من القسطنطينية التى كانت تزخر بهذه الآثار الكثيرة والتى حمل الحجاج المحاربون الصليبيون منها الشىء الضخم عند عودتهم إلى بلدانهم فى أوربة ، بل إن روبرت كلارى نفسه عاد بجزء منها كما تشير إلى ذلك الوثائق المحفوظة فى دير كوربى .

☆ ☆ ☆

أما المذكرات التى نقدمها اليوم لأول مرة للقارىء العربى فمؤلفها روبرت كلارى Robert Clări الذى اشترك فى الحملة منذ البداية وشاهد بنفسه سقوط القسطنطينية على أيدى « فرسان المسيح الحجاج » . ورغم وجود هذا الكتاب إلا أن معلوماتنا التاريخية عن مؤلفه ضئيلة إذا هى قيست بما نعرفه عن مؤرخ الحملة الرسمى « فلهاردوان » الذى كتبها من وجهة نظر رجال الطبقة المتنفذة فيها وعلى رأسهم « هنرى داندولو » دوج البندقية وكبار القادة الصليبيين ، ولعل مرجع الندرة فى المعلومات الخاصة « بروبرت كلارى » صاحب هذه المذكرات — هو أنه كان من الطبقة الشعبية ومن ثم لم يرق به نسبه إلى المكانة التى توفّر له من يعنى به العناية الجديرة بمواهبه .

أسهم روبرت كلارى فى الحملة تحت لواء بطرس داميان Pierre

d'Amiens ، كما شارك فى القتال الذى جرى عند أسوار القسطنطينية فى يوليو ١٢٠٣ م .

ومؤرخنا من ناحية « كليرى لى بيرنوا » Clery—les—Pernois الفرنسية ومن ثم نعت بكلارى ، بل إنه سمى نفسه بهذا الاسم فى مذكراته . وكانت هذه الإقطاعية الصغيرة فى حوزة أبيه جيلو Gilo من قبل إذ كان فصلا إقطاعياً لبطرس الدميانى ، ولم تكن فصليته بالتى ترقى به إلى المكانة الكبرى ، بل كانت من تلك الفصليات الصغيرة التى يتفق فيها « الرجل الحر مع رجل حر آخر أقوى منه » على حد تعبير العصور الوسطى ليكون فى حمايته .

* * *

والكتاب مكتوب أصلا بفرنسية العصور الوسطى ، والمعروف أنه لاتوجد النسخة الأصلية من هذه المذكرات التى أملاها روبرت كلارى على أحد الكتبة ، على أنه حدث فى عام ١٣٠٠ م أن عهد دير « كوربى » البندكتانى إلى أحد النساخ بنسخ بعض المخطوطات القديمة المحفوظة به ، ولم تكن — بطبيعة الحال — ثمت خطة مدروسة لأنواع الخطيات التى وقع عليها الاختيار حتى تتوفر منها أكثر من نسخة ، أو حتى لا تبلى مع مرور الأيام ، فجمع الناسخ خمسة كتب فى مجلد واحد كان أحدها هذه المذكرات ، ثم آل الكتاب أخيرا — فى منتصف القرن السابع عشر — إلى مكتبة ملك الدانيمرك ، وبقى منذ ذلك الحين محفوظاً فى المكتبة الملكية بكوبنهاجن ، وأدّى وجوده بها إلى أن أخذت الإشارة إليه وإلى محتوياته تظهر تباعاً فى الفهارس والدراسات المتعلقة بالخطيات .

أثارت هذه الإشارات إلتفات المؤرخين والبحاث فى تاريخ العصور الوسطى ، وانصبت عنايتهم بتلك النسخة من المذكرات التى تلقى ضوءا جديدا وهاما على حملة البارونات الفرنسيين على الإمبراطورية البيزنطية فى مستهل القرن الثالث عشر ، وكان من أشد الباحثين اهتماماً بها فى منتصف القرن التاسع عشر شاب ألمانى هو « كارل هوبف Karl Hopf » الذى يحمّل البندقية صراحة تبعة تغيير وجهة الحملة إلى القسطنطينية بدلا من مصر والشام ، فيزعم أن هناك اتفاقية سرّية عقدت بين السلطان الكامل بمصر ودوقية البندقية على هـــذا التبديل وإن خلت المراجع العربية واللاتينية على السواء من هذه الاتفاقية .

كانت عناية « كارل هوبف » — على أية حال — بدراسة الإمبراطورية اللاتينية فى الشرق حاملة إياه على الالتفات إلى مذكرات كلارى ، فعكف على دراستها حتى تهيأ له إصدارها سنة ١٨٧٣ م ، أى بعد عشرين عاماً من محاولته نشرها ، وعلة هذا التأخير أن الحكومة الفرنسية كانت قد وعدت بنشرها مع مايقدّمه من مخطوطات أخرى ، ثم قعدت عن النشر فنهض هو به فى اللغة الألمانية .

على أن أهمية هذه المذكرات كانت قد حملت الكونت ريان المعروف لدى دارسى الحروب الصليبية على أن بنشر المذكرات نشرة خاصة أهداها لخاصة أصدقائه ، وعمد فى هذا النشر إلى المتن دون أن يرفقه بأى تعليق أو تقديم وكان ذلك سنة ١٨٦٨ إلا أن نشرة الكونت ريان هذه — رغم رسوخ قدمه فى الدراسات الصليبية — أخرجت المذكرات فى صورة مشوهة كثيرة الأخطاء وذلك من جراء السرعة التى لازمت النشر ، وما لبث ريان أن أنكر بينه وبين نفسه أن تصدر

مثل هذه النسخة عنه ، فعمد إلى جمع ما استطاع جمعه منها وجعله طعمة للنار ، وضنّ باسمه أن يقرن باللوم فى نشر مخطوطةٍ هى من صميم دراسته : صفة للعالم الباحث المدقق ».

ومن ثم كانت نسخة هوبف الألمانى أول طبعة للمخطوطة صحيحة نسبياً وأرفقها بملاحظات قليلة ، وظلت هذه النسخة معوان الباحثين مدة نصف قرن من الزمان تقريباً حتى قام مسيو « فيليب لاور Lauer» أمين قسم المخطوطات فى المكتبة الأهلية بباريس عام ١٩٢٤ بنشر طبعة دقيقة منها فى مجموعة Les classiques français du moyen - âge ولم يكن هدفه دراسة موضوعية لتاريخ الحرب الصليبية الرابعة بقدر ما كانت بيان تطور الأساليب الفرنسية فى الكتابة فى العصور الوسطى ؛ وعلى هذا النص كان اعتمادى الأول فى الترجمة العربية مع مقارنته بالترجمة الإنجليزية التى صدرت عام ١٩٣٦ فى أمريكا بقلم الأستاذ إدجار هولمز ماكنيل E.H. Mc Nie[1] .

أما فى العربية فلا تعرف أن هناك إشارة إلى هذه المذكرات كما لم تسبق ترجمتها قط أو الاقتباس منها ، والسبب فى ذلك إحجام مؤرخينا عن تناول موضوع تاريخ الحروب الصليبية على هدى أصولها الأولى الغربية ، وكانت عنايتى بدراسة الحركات الصليبية فى قطاعاتها السياسى والاقتصادى والاجتماعى باعثة لى على نقلها إلى العربية مع كل ما يتيحه الفراغ من نقله إلى لغتنا العربية .

ولقد حاولت التزام الأصل الذى ترجمت عنه جهد الإمكان عساى أنقل إلى القارىء العربى صورة واضحة قريبة من أسلوب كلارى ذاته ، ذلك الأسلوب الذى يلاحظ قارؤه كثرة تكراره لعبارات معينة مما يشير إلى قلة محصول الكاتب من مفردات اللغة ؛ وعذر كلارى فى هذا

أنه لم يكن بالمؤرخ الأديب على حين نلمس ظاهرة التمكن من اللغة وتعدّد الأساليب فى مذكرات فلهاردوان فى الموضوع ذاته ، وعلة الاختلاف بين الكاتبين أن كلارى لم يتهيأ له من الثقافة ما تهيأ للمؤرخ السفير فلهاردوان ، كما أن البيئة التى تقلب فيها كل منهما انعكست آثارها الثقافية فى كتابات كل منهما .

* * *

أما ألفاظ الأعلام والألقاب والنعوت والمصطلحات والوظائف الإقطاعية وأسماء الأماكن مما تختلف فى مصدر عنه فى آخر فأرى أن تكون موضوع دراسة مستقلة ، وأرجو أن أتمكن بعد نشر جزء طيب من وثائق العصور الوسطى والحروب الصليبية من إصدار قاموس بكل ما أشرت إليه على نمط ما فعلت ـ وإن يكن بصورة صغيرة جداً ـ فى نهاية كتابى « نور الدين والصليبيون » .

* * *

أما قيمة مذكرات كلارى هذه ـ عن فتح القسطنطينية ـ كمصدر تاريخى فتعدّدة الجوانب ، إذ أن أول ما يلاحظه مطالعها ـ حين فراغه منها ـ أن روبرت كلارى ألمّ فيها بالحملة الصليبية الرابعة منذ البداية حتى تخريب مدينة أدريا نوبوليس فى أبريل ١٢٠٥م ضد جماعات الكومان ، وهى الواقعة التى دارت الدائرة فيها على الإمبراطور بلدوين: أول إمبراطور للإمبراطورية اللاتينية فى الشرق المسيحى ،وذلك حين وقع أسيراً فى أيدى خصومه ، وهو أسر انتهى بمقتله وتولى أخيه هنرى العرش مكانه ، ويلاحظ أن هذه الفترة الزمنية (أى من ١٢٠٢م إلى ١٢٠٥م) تشغل قرابة كل

الكتاب غير بضع صفحات قلائل تكلم فيها عن المدة من ١٢٠٥ م إلى ١٢١٦.

ولسنا نعرف شيئاً عما كان يفعله كلارى طوال هذه الفترة الأخيرة التى قاربت إحدى عشرة سنة ، بل إن إيجازه المخل أحياناً فى سرد أحداثها - وهى جسام - يشبه رءوس أقلام مما يحمل على الظن بأنه لم يكن فى القسطنطينية، بل إنه انكفأ إلى وطنه بعد أن تم الفتح اللاتينى للعاصمة البيزنطية ؛ فعاش كما كان مغموراً لا يحس به أحد ، وإذا كنا نعرف أن كلارى كان يحارب تحت بيرق سيده الإقطاعى بطرس الداميانى فلنا أن نتساءل : مامصيره بعد موت مولاه فى صيف ١٢٠٤ م ؟

هل عاد إلى وطنه ؟

أم أنه ألقى السلاح جانباً حين لم يجد من يؤجر سيفه له ؟

الجواب على هذا أننا لانعرف شيئاً بالتأكيد، ولكننا نذهب مع القائلين بأنه وأمثاله ممن كانوا يعملون مع بطرس الداميانى قد انضموا إلى ابن عمه «هيج كونت دى سنت بول » ، غير أن الأجل لم يمتد طويلا بالكونت «هيج» فما لبث هو الآخر أن مات فى مارس ١٢٠٥ م ، أى قبل شهر واحد من هزيمة بلدوين وأسره ومصرعه ، ومن المحتمل أن يكون موت هيج دى سنت بول قد فرّق البقية الباقية من كتيبة ابن عمه بطرس الداميانى ، فكان ذلك خاتمة مطاف كلارى فى الشرق المسيحى .

لكن ألا يحتمل أن يكون كلارى قد قضى ما تبقى من أيامه فى القسطنطينية حتى وافاه الأجل بها ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تحمل النفى المطلق ، ذلك أن الشواهد المادية من الآثار المقدسة التى حملها معه من القسطنطينية إلى بلده تنبىء

عن عودته إليه حتى قبل موت الإمبراطور بلدوين، أى قبل أبريل ١٢٠٥م، في كنيسة القديس بطرس الموجودة فى « كوربى » بفرنسا بعض آثار مقدسة «جاء بها روبرت كلارى فى الوقت الذى كان فيه بلدوين إمبراطوراً»، وهذا نص صريح على أن روبرت كلارى عاد إلى مسقط رأسه ، وأن عودته كانت إبان حياة الإمبراطور بلدوين ، أى قبل أبريل ١٢٠٥ م بما يؤكد ما ذهبنا إليه من أنه انفصل عن جماعات الصليبيين الأوربيين فى بيزنطة عقب موت هيج كونت سنت بول فى مارس ١٢٠٥ م .

نخلص من هذا أن ما يمكن الاعتماد عليه من مذكرات كلارى - مما شاهده بنفسه - كان منذ البداية حتى شهر مارس ١٢٠٥ م ، أما ما بعد ذلك - وهو بضع صفحات قلائل - فالأرجح أنه دوّنه بناء على ما سمعه ممن عادوا بعده من الشرق المسيحى .

ومثل هذا يمكن أن يقال عن الاستعدادات للحملة منذ البداية حتى يونيو ١٢٠٢ م حين تجمعت القوات الصليبية فى البندقية ، ولعل المصدر الذى يمثل الصدارة عن تاريخ هذه الفترة بالذات هو مذكرات فلهاردوان ، وعلة هذا النقص الجزئى عند روبرت كلارى أنه لم يكن له من مكانته ما يؤهله لأن يكون على اتصال مباشر أو شبه مباشر بالقادة الحربيين للحملة ، على حين توفرت هذه الأمور لفلهاردوان إذ كان السفير الرسمى للصليبيين فى أكثر من موقف .

على أن ذلك لا يطعن فى قيمة مذكرات روبرت كلارى من هذه الناحية ، بل يجب أن ننظر إليها - كمؤرخين - من زاوية أخرى ونعنى بها أنها تجمع لنا فى إطار واحد الصورة التى وعتها ذهنية الرجل العادى فى أوربة الغربية عن هذه الحملة ، ومدى ما وصل إليه علمه عن مداها

وبواعثها ووجهتها والمساهمين فيها ، وكلها أمور تهمنا ، لأنها ترسم لنا صورة واضحة عما كان مدبروها يذكرونه للجمهور الأوربي في الوقت الذي يتفقون فيه سراً ـ وعلى مستوى عال ـ على الخطة التي لو وقفت عليها العامة منذ البداية لكان من الممكن أن ترجع عن المساهمة التي أدت إلى محاربة النصارى الشرقيين بسيوف إخوانهم في الدين من أهل أوربة الغربية .

ألم يصوّر هؤلاء القادة أنهم خرجوا لنصرة المسيحية في الشرق واستخلاص بيت المقدس وتأمين طريق حجاجه الغربيين ؟ ثم ألم يصوروا للعامة أن الباعث المحض على هذا الخروج هو نصرة المسيحية ؟

فماذا كان الواقع ؟

الواقع أن هؤلاء الزعماء كانوا يرتبون منذ البداية العمل على تكوين إمارات ، واستخلاص مقاطعات جديدة لهم ، ثم إنهم بدلا من محاربتهم المسلمين راحوا يحاربون المسيحيين في بلاد المجر وفتكوا باليونان النصارى ولم تسلم منهم الكنائس حتى ليقول أحد المؤرخين اليونان في هذا الصدد « إنهم فعلوا مالم يفعله أبداً المسلمون فدمروا الكنائس واغتصبوا راهبات المسيح » ، أضف إلى هذا أنهم بدلا من محاربتهم مصر وبلاد الشام قاموا بمحاربة الامبراطورية البيزنطية المسيحية وقضوا عليها .

وما قيل عن خفاء أسرار الحملة التمهيدية عن كلارى وإخوانه « خدام المسيح » يمكن أن يقال أيضاً عن الاتفاقات السرية التي كانت تعقد بين البارونات الفرنسيين ودوج البندقية طول الرحلة والتي قد تكون خفيت أيضاً على المندوب البابوى لولا موقف بعض من فاضت نفوسهم بحب الدين وخدمته أمثال سيمون دى مونتفرات .

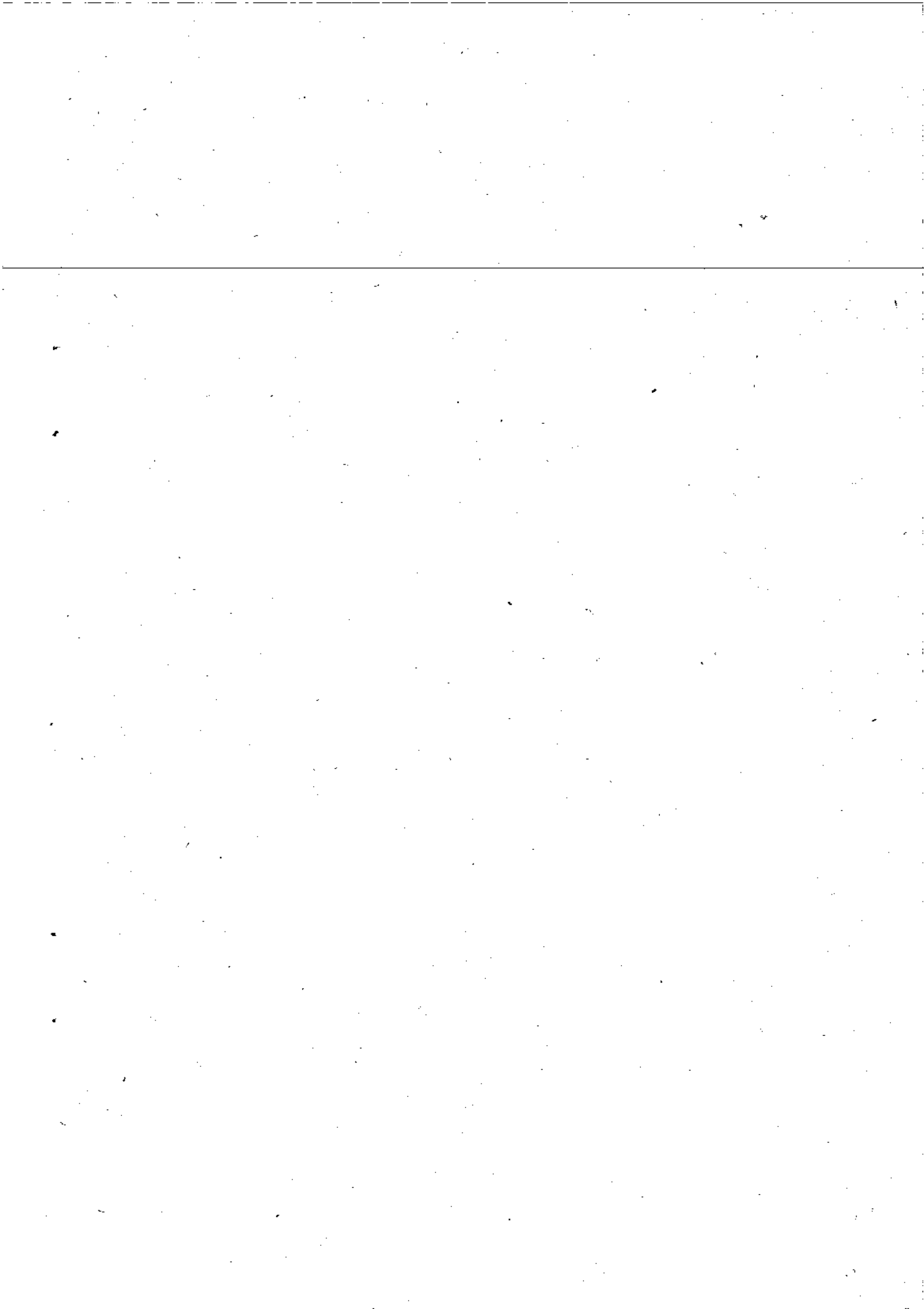
على أن كلارى يمدنا بمعلومات قيمة عن الجسور المعلقة التى اصطنعها البنادقة فى حصارهم القسطنطينية والهجمات التى شنها الصليبيون على أسوار العاصمة وبروجها، وتهيأ لكلارى أيضاً أن يشهد تتويج الإمبراطور بلدوين، وطبيعى أن مثل هذا المنظر ما كان ليبرح خيال الفارس العادى مثل كلارى الذى أعجبته القسطنطينية بما حوت من المبانى والآثار والكنائس التى تفيض بها منذ تاريخها القديم.

إن كل صفحة من صفحات هذه المذكرات تحوى جديداً وقد يكون فى بساطة السرد وسذاجة الرواية ما يفسر بعض الأهداف الغامضة فى هذه الحرب.

* * *

وبعد فإنى أترك المذكرات تتحدث إلى القارىء حتى يستشف منها لنفسه ما يستشف، وأرجو أن تساعد هى وغيرها من مصادر الحروب الصليبية الغربية التالية لهذا الكتاب على أن تكون لبنة فى دراسة حقيقة هذه الحروب الدامية فى تاريخ الإنسانية؟

الدقى فى ٧ ذى القعدة ١٣٨٣ / ٢١ مارس ١٩٦٤ — حسن حبشى



فتح القسطنطينية

المشتركون فى الحملة الصليبية

١ – هنا يبدأ تاريخ أولئك الذين فتحوا القسطنطينية ، ثم سوف نروى لك بعدئذ من هم ، والسبب الذى من أجله ذهبوا إليها .

حدث فى الوقت الذى كان فيه البابا إنوسنت[١] يتولى كرسى رسولية رومة[٢] وفى الوقت الذى كان فيه الملك فيليب يتولى عرش فرنسا كان هناك فيليب آخر هو [فيليب دى سوابيا] إمبراطور ألمانيا ، وكانت السنة سنة ألف ومائتين وثلاث أو أربع[٣] حين ظهر قسيس اسمه السيد فولك من أهل نيللى Neuilly ، وهى أبرشية تابعة لأسقفية باريس ؛ وكان هذا القسيس رجلا مستقيما فاضلا وكاهناً طيباً كريماً ، فأخذ يجوس خلال البلاد داعيا إلى حمل الصليب ، وتبعه أناس كثيرون لأنه كان قد بلغ من الاستقامة حداً أظهر له الربّ معه معجزات كثيرة ، وجمع هذا القسيس ثروة ضخمة لحملها إلى الأرض المقدسة فيما وراء البحار .

وفى هذا الوقت حمل الصليب ثيبوت كونت شمبانيا[٤] ، وبلدوين

(١) هو البابا إنوسنت الثالث Innocent III

(٢) فى الأصل الفرنسى القديم estoit apostoiles de Roume أى الذى كان رسول رومة .

(٣) أخطأ روبرت فى ذكر التاريخ ، لأن الحملة خرجت من البندقية عام ١٢٠٢ أى قبل التاريخ الوارد فى المتن ، راجع الحاشية التالية .

(٤) الواقع أن كونت ثيبوت الثالث كان قد دعى جماعة من أصدقائه وجيرانه إلى مأدبة فى قصره فى Aisne بشمبانيا وكان ذلك فى نوفمبر ١١٩٩ ، وكان مما تحدثوا فيه =

كونت فلاندر [1] وأخوه هنرى ، ولويس كونت بلوا وهيج كونت سانت بول وسيمون كونت دى مونتفورت وأخوه جى .

ثم سوف نخبرك الآن بأسماء الأساقفة الذين اشتركوا ، فكان منهم نيفلون أسقف سواسون ، وكان رجلا عظيم القدر جدا بارعا فى أداء كل واجب يناط به ، يجيب دعوة الداعى إذا دعاه فى حاجة له ؛ وكان هناك فارنييه أسقف تروى و [كونراد] أسقف هالبرشتات فى ألمانيا ، وجون دى نويون الذى انتخب ليكون أسقف عكا .

وكان يوجد أيضا رئيس أساقفة دير «لوس» الواقع فى فلاندر ، وهو أحد أديرة الإخوان الفرنسيسكان ، وكان هذا الرئيس رجلا عاقلا مستقيما وفاضلا طيبا . وكان هناك أيضا كثيرون غيره من رؤساء الأديرة ورجال الدين ممن لا نستطيع أن نذكر أسماءهم جميعا ، ولكن نستطيع أن نورد لك أسماء البعض منهم .

كذلك لا نستطيع أن نحصى لك أسماء جميع البارونات ممن اشتركوا فى حملة الصليب بل أسماء فريق منهم ، فكان من أمينو اسيدى بطرس الدميانى

= أمر الدعوة لحرب صليبية فكان ثيبوت أكبر المتحمسين لها ، وحينذاك دعى إلى هذا الاجتماع فولك دى نيللى الذى أخذ منذ ذلك الحين فى التبشير بالحملة الصليبية حتى وافاه الأجل فى مايو ١٢٠٢ ، كما أن وفاة ثيبوت حدثت فى مايو ١٢٠١ . أما أهمية كونت ثيبوت فى هذا المجال فقد كان قريباً لكل من ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، ويرجع الفضل إلى ثيبوت هذا فى أنه أرسل فى مستهل ١١٠١م المؤرخ فلهاردوان إلى البندقية لمفاوضتها فى نقل الجيش الصليبى بحراً .

(١) هو بلدوين التاسع كونت فلاندر الذى توج فى ١٤ مايو ١٢٠٤ إمبراطوراً للإمبراطورية اللاتينية التى أقامها الصليبيون فى القسطنطينية ، فلما قتل على يد أهل بلغاريا تولى مكانه أخوه هنرى ثانى الأباطرة الصليبيين الذى ظل على العرش حتى مات عام ١٢١٦م .

الفارس اللطيف المستقيم الباسل ، وسيدى أنجر دى بوفيز وهو أحد أربعة إخوة (أحدهم روبرت والثانى هيج ، أما الأخ الثالث فكان قسيسا) .

واشترك أيضاً بلدوين دى بوفوارْ ، ومتَّى دى وَارْلِنكُوت Warlincout حامى دير بيثون وأخوه كونون ، واستاس دى كانتيليه وآنسو دى كايو ، ورينيه دى تريت ، وويلزدى فريز ، وجيرارد دى مانشيكورت ، ونيكولا دى ميللى ، وبلدوين دى كافاروم ، وهيج دى بوفيه وكثيرون غيرهم من الفرسان والرجال العظام من الفلمنكيين والأقطار الأخرى ممن نعجز عن تسميتهم جميعهم لك .

كذلك اشترك فى حمل الصليب سيدى جيمس دى أفين ، واشترك فيها من برجنديا أوتو دى شامبليت ، وأخوه وليم الذى ضم الجيش كثيرين من رجاله .

وكان هناك كثيرون غيرهم من برجنديا لا نستطيع أن نذكر أسماءهم جميعاً لك .

واشترك من شمبانيا مارشالها[1] ، وأوجيه دى سنت شيرون ، وماكير دى سنت مانيهولد ، وكلارمبو دى شاب ، وميلز البربنتى : وهؤلاء كلهم من شمبانيا .

كذلك كان فيها محافظ كوسى ، وروبرت دى رونسوى ، ومتّى دى مونتمورنسى الذى كان رجلا فاضلا مستقيماً ، ووراء ول دى أولنوى وابنه وولتر ، وجيل أولنوى ، وبطرس دى براشو الفارس الطيب الباسل الشجاع وأخوه هيج ؛ وهؤلاء الذين ذكرت أسماءهم لك هنا كانوا من فرنسا ومن بوفيزى .

---

(١) يقصد بذلك المؤرخ جود فروى فلهاردوان ، راجع مقدمة الترجمة العربية .

وكان فيها من شارتران : جرفيه دى شاتل وابنه هرفيه ، وأوليفر دى روشفورت ، وبطرس دى ألوست ، وباين الأرلياني ، وبطرس الدمياني وكان فارساً عظيماً مقتدراً جاء بكثير من أفعال القوة هناك ، وأخوه توماس وكان قسيساً ، وكاهن أميين ، ومناسيس من أهل ليل فى فلاندر ، ومتىّ دى مونتمورنسى ، ومحافظ كوربى .

وكان هناك كثير من الفرسان الآخرين من فرنسا وفلاندر وشمبانيا وبرجنديا وغيرها من الأقطار الأخرى الذين لا نستطيع أن نذكر لك جميع أسمائهم ، ولكنهم جميعاً فرسان شجعان بارعون .

أما الذين ذكرناهم لك هنا فكانوا من أغنى الناس وأهمهم ، وكانوا يحملون البيارق بأيديهم ، ولم نذكر جميع من كانوا يحملون هذه الرايات .

أما الذين قاموا بأعظم أعمال القوة والبطولات الحربية : فقراءً كانوا أم أغنياء ، فنستطيع أن نذكر لك فريقاً منهم :

كان بطرس دى براشو واحـــداً من بين هؤلاء الأثرياء الذين قاموا بأعظم آيات البطولة ، وكذلك أخوه جى ، وأندرو دى ديربواز وسيدى لورد بطرس الدمياني العظيم ، ومتى مونتمورنسى ، ومتى وار لنكورت وبلدوين دى بوفوار ، وهنرى أخو كونت فلاندر وجيمس دى أفين ، وكان هؤلاء من جماعة الأغنياء الذين قاموا بأعظم أعمال الحرب .

أما من الفقراء فنذكر برنارد دى إير ، وبرنارد دى سوبرنجيان ، وأستاس دى هيمونت وأخوه ، وجلبرت دى فيسم ، وويلز دى فريز ، وهيج دى بوفيه ، وروبرت دى رونسوى ، وألارد ما كيرو ، ونيكولا

دى ميلى ، وجى دى ما نشيكورت ، وبلدوين دى هاميلينكورت ، ووليم دى أميرفيل ، وأليوم دى كلارى Aleaumes قسيس أمينوا الذى كان رجلا فاضلا وجاء بأعمال كثيرة من البطولة والقوة هناك ، وأليوم دى سان Sains وويلرام دى فرنتين Willerames .

وهؤلاء الذين ذكرنا لك أسماءهم هم الذين قاموا بأعظم أعمال البطولة والقوة فى الحرب ، كما فعل فعلهم كثيرون غيرهم من القوم الصالحين ـ من الفرسان والمشاة ـ وهم آلاف كثيرة نعجز عن تقدير عددهم .

الاستعداد للحملة

٢ — ثم جاء كافة من كانوا قد حملوا الصليب من الكونتات وكبار البارونات ، وأرسلوا فى طلب جميع كبار الرجالات الذين حملوا الصليب، حتى إذا تكامل اجتماعهم راحوا يقلبون الأمر فيما بينهم عمن يولونه رياستهم وقيادتهم فانعقد الإجماع منهم على اختيار كونت ثيبوت دى شمبانيا فنصبوه قائدهم ، فلما فرغوا من تنصيبه انفصل كل منهم عن الآخر وانكفأ إلى وطنه ، لكن لم تنقض فترة وجيزة على هذا الأمر حتى امتدت يد الموت إلى كونت ثيبوت ، فمات مخلفاً خمسين ألف جنيه للصليبيين ولمن تؤول إليه من بعده قيادتهم ورياستهم ، وأوصى أن يتصرف الصليبيون فى هذا المبلغ وفق ما يريدون .

٣ — كذلك مات السيد فولك ، فكان موته خسارة فادحة وكارثة عظمى نكب بها الصليبيون . ولما عرف الصليبيون أن رئيسهم كونت شمبانيا مات وكذلك السيد فولك ، أمضّهم الحزن البالغ ، وتبلبلت خواطرهم ، ودب اليأس إلى قلوبهم . فاجتمعوا كلهم فى يوم معين فى سواسون

وتشاوروا فيما بينهم فيما ينبغى عليهم عمله وعمن يسوقون إليه زعامتهم ويولونه عليهم قائدا ، فاتفق رأيهم فى النهاية على أن يرسلوا إلى لومبارديا فى طلب « ماركيز دى مونتفرات » ، ومن ثم بادروا فبعثوا إليه جماعة من الرسل الصالحين ، فلما استعدوا للأمر مضوا إلى الماركيز ، حتى إذا وصلوا إلى لمبارديا وجاءوا إلى الماركيز تحدثوا إليه قائلين له : إن بارونات فرنسا يحيونه ويبعثون إليه رسالة يستحلفونه فيها بالرّب أن يحضر إليهم فى يوم حددوه له للتحدث إليهم . فلما سمع الماركيز هذا القول عجب أشد العجب ، لِمَ يختصه بارونات فرنسا فيوفدون إليه رسلهم ، وأنبأهم أنه سيفكر فى الموضوع وسيطلعهم غدا على مايراه بشأنه وقد أكرم الماركيز وفادة الرسل غاية الإكرام .

اجتماع سواسون (يونيو ١٢٠١)

٤ — فلما جاء الغد ، أنبأهم الماركيز أنه ماض فى اليوم الذى حددوه له إلى سواسون للتحدث معهم ، وإذ ذاك استأذنه الرسل فى الانصراف وكرّوا راجعين ، فقدم لهم الماركيز بعضاً من جياده ومجوهراته ولكنهم لم يقبلوا تناول شىء منها .

فلما عادوا إلى البارونات أفضوا لهم بما فعلوه ، ثم أعد الماركيز بعدئذ ترسه وعبر جبل مونت جو Mont Joux ، وراح يتابع سيره فى فرنسا حتى بلغ سواسون ، وبعث ربيئة أمامه إلى البارونات يخبرهم بمقدمه ، فجاءوا لمقابلته حيث أقام ، وأكرموا وفادته غاية الإكرام .

٥ — ولما قدم الماركيز إلى سواسون سأل البارونات عما دفعهم إلى طلبه ، وإذ كانوا قد قرروا بأجمعهم هذا الأمر فيما بينهم من قبل فقد

قالوا له : « لقد بعثنا ساداتنا إليك يامولانا ، لأن سيدنا كونت شمبانيا الذى كان قائدنا قد مات ، ومن ثم فقد أرسلنا إليك باعتبارك أعظم رجل مستقيم نعرفه ، والعلم الفرد الذى يستطيع — بمشيئة الله — أن يمحضنا النصيحة الصادقة فى أمورنا ، وإننا لنتوسل إليك جميعاً باسم الرب أن تقبل أن تكون رئيسنا ، وأن تحمل الصليب محبة فى الله » .

قال له البارونات هذه الكلمات وهم ركوع أمامه ، وقالوا إنه لا ينبغى عليه أن ييأس من النهوض بهذا العبء لأنهم سيعطونه الجانب الأكبر من المال الذى خلفه كونت شمبانيا للصليبيين .

فقال الماركيز إنه سيتدبر الأمر ، فلما تدبره أنبأهم بأنه سيحمل الصليب محبة فى الله ، وإنقاذاً للأرض الواقعة فيما وراء البحار ، وإذ ذاك بادر أسقف سواسون بمباركة الماركيز وناوله الصليب ، فما كاد يحمله حتى أعطوه خمسة وعشرين ألف جنيه من النقود التى خلفها كونت شمبانيا للصليبيين .

بعد أن أخذ الماركيز الصليب ، قال للبارونات : « أيها السادة ، أى بلاد ما وراء البحار وجهتكم ؟ وإلى أى بلد من بلاد المسلمين تريدون الذهاب ؟ » . فأجابه البارونات إنهم لا يريدون الذهاب إلى بلاد الشام ، لأنهم لن يكونوا قادرين إذ ذاك على إنجاز شىء ما هناك ، ولكنهم يفكرون فى الذهاب إلى القاهرة أو الإسكندرية قلب الأحداث ، حيث يكونون قادرين على عمل أشياء أعظم خطورة ، وأنهم قد أعدوا العدة لاستئجار أسطول يكون قادراً على نقلهم جميعاً إلى وجهتهم .

وحينئذ أثنى الماركيز على خطتهم الحكيمة هذه ، وأفادهم أنه موافق

عليها كل الموافقة ، وأن الواجب يقتضيهم إرسال رسل من أحسن فرسانهم إلى بيزا ، أو جنوه ، أو البندقية ، فوافق البارونات كلهم على هذا الرأى .

الاتفاق مع البندقية

٦ — وبعدئذ اختاروا رسلهم ، واتفقوا كلهم على أن يذهب فى هذه السفارة كونون دى بيثون ومارشال شمبانيا (١) .

فلما فرغ البارونات من اختيار سفرائهم ، انفصل بعضهم عن بعض ، وانقلب الماركيز عائدا إلى وطنه ، وحذى الآخران حذوه . وكلفوا الرسل باستئجار مراكب لنقل أربعة آلاف فارس ومعداتهم ، وكذلك مائة ألف راجل ، فاستعد الرسل بآلاتهم وسافروا فى الحال حتى بلغوا جنوة ، وأخذوا فى مفاوضة الجنوية . وأفضوا إليهم بما جاءوا من أجله ، فأجابهم الجنويون بعدم استطاعتهم مطلقا مد يد المساعدة إليهم فيما وفدوا بصدده ؛ وإذ ذاك مضى الرسل إلى بيزا وحادثوا البيازنة فاعتذروا إليهم بقلة مالديهم من السفن وأنبأوهم أنهم لا يستطيعون عمل شيء لهم ، وحينذاك شخص الرسل إلى البندقية وكلموا دوجها وأخبروه عما جاءوا من أجله ، وأنهم يريدون استئجار وسيلة نقل لأربعة آلاف فارس بمعداتهم ومائة ألف من المشاة ، فلما سمع الدوج هذا القول قال إنه سيفكر فى هذا الأمر ، لأن مثل هذا المطلب الكبير يتطلب التفكير العميق ، ثم استدعى إليه جميع كبار مستشارى المدينة ، وتكلم إليهم وأطلعهم على ملتمس السفراء منه . فلما تدبر هو ورجاله الأمر فيما بينهم ، قال للسفراء : « أيها السادة ، نحن

(١) يعنى بذلك المؤرخ فلها ردوان .

مستعدون لإجابة ماطلبتموه ، وسنهيء لكم بحرية كبيرة جداً إن قبلتم دفع مائة ألف مارك لنا ، على أن يكون مفهوما لديكم أنى سوف أمضى معكم بصحبة نصف القادرين على حمل السلاح من أهل البندقية ، وأن يكون من نصيبنا النصف فى جميع الغنائم التى تقع فى أيدينا هناك ، وسنضيف إلى هذا الأسطول خمسين غرابا نقوم نحن البنادقة بنفقاتها ، وسننقلكم فى مدى عام من اليوم الذى نحدده إلى أى بلد شئتم ، سواء أكان هذا البلد القاهرة أم الاسكندرية » .

٧ — فلما سمع الرسل هذا القول أجابوه إن المائة ألف مارك مبلغ ضخم جداً ، وتفاوضوا معه حتى تمت المساومة على دفع مبلغ سبعة وثمانين ألف مارك ، وإذ ذاك أقسم الدوج والبنادقة والرسل على مراعاة هذه الاتفاقية.

وحينذاك قال الدوج إنه يريد استلام خمسة وعشرين ألف مارك معجلة ليشرع فى بناء السفن ، فأجابه المبعوثون بضرورة إرساله جماعة من الرسل إلى فرنسا صحبتهم ، وأنهم سوف يعملون على دفع الخمسة وعشرين ألف مارك لهم .

حينذاك استأذن السفيران فى الرحيل وعادا بعد أن بعث الدوج بصحبتهما أحد كبار الشخصيات من أهل البندقية ليتسلم المبلغ المتفق على دفعه .

ثم أمر الدوج أن ينادى فى كافة أرجاء البندقية ألا يشغل أى بندقى نفسه بعمل ما سوى الانصراف لمد يد المساعدة فى بناء السفن ، ففعلوا ما أمروا به ، وشرعوا فى بناء أسطول كان أغنى أسطول تأتىَّ للعين أن تراه ؛ ولما وصل الرسل إلى فرنسا أعلنوا نبأ عودتهم ، وإذ ذاك بعث

القوم رسالة إلى جميع البارونات الذين حملوا الصليب يطلبون فيها منهم سرعة المجيء إلى كوربى .

الصليبيون فى البندقية

٨ — فلما التأم شملهم كلهم أفضى إليهم المبعوثون بما تم الاتفاق عليه ، فكان فرح البارونات به حين سماعهم إياه عظيما ، وبادروا إلى إقرار ما أبرموه كما أكرموا وفادة رسل دوج البندقية ونقدوهم بعضاً من المال الذى خلفه كونت شمبانيا وراءه ، وقدراً من المبالغ التى كان السيد فولك قد جمعها ، كما دفع كونت فلاندرز — زيادة على ذلك — بعضاً من ماله حتى بلغت قيمة ما جمع كله خمسة وعشرين ألف مارك أعطوها لرسول دوج البندقية وزودوه بتصريح مرور يضمن له سلامة الذهاب به إلى وطنه .

٩ — وبعدئذ بعثت رسالة إلى جميع الصليبيين فى كافة البلاد بوجوب خروجهم فى عيد الفصح للذهاب إلى البندقية ، وأن يكونوا بها فى الفترة الواقعة بين عيد العنصرة وشهر أغسطس ، وألا يتخلف أحد منهم عن الحضور ، فامتثلوا لما أمروا ، ومن ثم ما كاد ينقضى عيد الفصح حتى جاءوا جميعهم ، وجاء كثير من الآباء والأمهات والأخوات والإخوة والزوجات والأطفال يبكون بكاءاً مراً على أحبابهم الأعزاء

١٠ — ولما التأم شمل جميع الحجاج بالبندقية ، واكتحلت عيونهم بمنظر الأسطول الضخم المقدم لهم ، وشاهدوا السفن العظيمة ، وطالعوا الحراقات الكبيرة ومراكب الشحن التى أعدت لنقل الخيول وأبصروا الأغربة تملكهم العجب منها ومما اشتملت عليه المدينة من الثروات الهائلة .

وحين أدركوا أن نواحى المدينة لن تسعهم أجمعين، اتفقوا فيما بينهم على الرحيل والإقامة فى جزيرة سنت نيكولا التى كان البحر يكتنفها من كل ناحية ، وهى واقعة على بعد فرسخ واحد من البندقية ، ومن ثم انتقل الحجاج إلى هناك ، ونصبوا خيامهم ، وأقاموا على أحسن حال كان فى إمكانهم .

١١ — ولما رأى دوج البندقية تكامل وفود جميع الحجاج بعث فى طلب كل حجاج بلده البندقية ، فلما جاءوا كلهم أصدر أمره أن يقوم نصفهم بتزويد أنفسهم والتأهب للسفر فى صحبة الحجاج فى الأسطول ، فلما سمع البنادقة ذلك الخبر سرت الفرحة فى نفوس بعضهم ، أما البعض الآخر فقالوا إنهم لن يستطيعوا الذهاب ، واختلفوا فيما بينهم فى تقرير كيفية اختيار النصف الذى يرحل مع الحملة ، وأخيراً عملوا قرعة على الصورة التالية : هى أنهم صفوا كرات من الشمع كل اثنتين معاً ، وجعلوا فى إحدى الكرتين قطعة من الورق ، ثم جاءوا إلى القسيس وأعطوه الكرات ، فرسم عليها علامة الصليب ، فكان يعطى كل كرتين إلى اثنين من البنادقة فمن كانت من نصيبه الكرة التى اشتملت على الورقة المكتوبة تحتم عليه الرحيل مع الأسطول ، وبهذا قسموا إلى قسمين .

التفكير فى زارا

١٢ — ولما استقر الحجاج فى جزيرة سنت نيكولا ، مضى دوج البندقية وأهلها لمحادثتهم ، وطلبوا إليهم سداد ثمن السفن التى أعدُّوها لهم ، وقال لهم الدوج إنهم أساءوا التصرف حيث بعثوا مع رسلهم فى طلب إعداد

أسطول لنقل أربعة آلاف فارس بعداتهم ومائة ألف من المشاة ، على حين أنه لم يحضر من هؤلاء الأربعة آلاف فارس أكثر من ألف فقط من جرّاء سفر الآخرين من موانٍ أخرى غير البندقية ، كما أنه لم يحضر من المائة ألف من المشاة أكثر من خمسين ألفاً أو ستين ألفاً ، وقال الدوج : « ومن ثم فإننا نريد منكم أن تدفعوا لنا القدر المتفق عليه بيننا وبينكم ». فلما سمع الصليبيون هذا القول راحوا يتشاورون فما بينهم ، ثم اتفقوا على أن يدفع كل فارس أربعة ماركات عن نفسه ومثلها عن كل حصان ، وكل من الخيالة ماركين على ألا يقل ما يدفعه الشخص عن مارك واحد . ثم دفعوا إلى البنادقة ما جمعوه من المال ولكن تبين أنهم لازالوا مدينين للبنادقة بخمسين ألف مارك لابد من سدادها .

غضب الدوج والبنادقة أشد الغضب حين رأوا أن الحجاج لم يدفعوا لهم أكثر من هذا المقدار ، وأخيراً قال لهم الدوج : « أيها السادة ، لقد آذيتمونا ، لأنه ما كاد مبعوثوكم يعقدون معى هذه الاتفاقية حتى أصدرت أمرى فى كافة نواحى إقليمى بتخلى كل تاجر عن تجارته وأن يقوم الجميع بإعداد هذه السفن ، ومن ثم فقد ظلوا فى الانتظار منذ ذلك الحين ، وكفوا عن القيام بأى عمل يعود عليهم بالكسب مدة عام ونصف عام فكانت خسارتهم فادحة ولذلك فإننى ورجالى نطالبكم بدفع المال الذى ما زلتم مدينين لنا به ، فإن لم تفعلوا ذلك فاعلموا أنكم غير مبارحى هذه الجزيرة قبل سداد ما عليكم لنا ، ولن تجدوا أحداً ما يأتيكم بالزاد والماء » ؟

لكن الدوج كان رجلا مستقيما فاضلا ، ومن ثم فإنه لم يتوقف عن تزويدهم بما فيه الكفاية لهم من الطعام والشراب .

١٣ — فلما سمع الكونتات والصليبيون ما قاله الدوج اشتد حزنهم وتفاقم غمهم ، وعادوا مرة أخرى لجمع المال ، واستدانوا من الأموال كل ما استطاعوا استدانته ممن ظنوا أن معهم منها شيئا ودفعوها للبنادقة ، حتى إذا فرغوا من الدفع وجدوا أنه لا زال متبقياً عليهم مبلغ ستة وثلاثين ألف مارك ، وأخبرهم [الصليبيون] أنْ قد ضاقت عليهم السبل وتأزمت أمورهم وافتقر الجيش من جراء ماجمعوه منه ، وأنهم لايستطيعون جمع شيء أكثر مما جمعوه ليدفعوه للبنادقة ، بل إنه لم يبق معهم الذى لايكاد يكفى لإعاشة الجيش إلا بالكاد .

فلما رأى الدوج أنهم عاجزون عن دفع كل المبلغ ، وأنهم أصبحوا حقاً فى متربة بالغة بسببه تكلم إلى قومه وقال لهم : « أيها السادة ، إذا تركنا هؤلاء الرجال يعودون إلى أوطانهم ، دمغَنا الناس أبد الدهر بأننا خبثاء محتالون ، وأنه لاجدى علينا أن نذهب إليهم ونخبرهم أننا سننقلهم بحراً إذا قبلوا أن يدفعوا لنا مبلغ الستة وثلاثين ألف مارك المتبقية لنا عندهم من أولى مغانمهم التى سيصيبونها لأنفسهم » ، فاستجاب البنادقة عن طيب خاطر لمقالة الدوج .

ومن ثم مضوا إلى الحجاج حيث يقيمون حتى إذا جاءوهم قال لهم الدوج : « أيها السادة ، لقد تداولت الأمر أنا وشعبى فيما بيننا ، واتفقنا على أن ننقلكم على ظهر السفن إن كنتم مستعدين أن تعدونا وعدا صادقا بأن تدفعوا لنا الستة وثلاثين ألف مارك التى ندينكم بها من أولى المغانم التى ستغنمونها لأنفسكم » ، فلما وعى الصليبيون مقالة الدوج واقتراحه ، استبد بهم السرور وركعوا على قدميه فرحاً ووعدوه وعداً أكيداً لا رجعة فيه أنهم فاعلون ما أشار به عليهم ، وظلوا طول ليلتهم هذه فى

غبطة شاملة ، فلم يبق أى فقير لم يقم إضاءة عظيمة ، وحملوا مشاعل كبيرة ركزوها على أطراف رماحهم ونصبوها حول مخيماتهم وداخلها ، حتى لقد كان يخيل للرائى أن المعسكر بأجمعه قد استحال شعلة من نار .

١٤ — ثم لم يلبث الدوج أن جاءهم قائلا : « أيها السادة لقد صرنا الآن فى فصل الشتاء ، ولا نستطيع ركوب البحر ، وليس فى قدرة أحد أن يلومنى على ذلك ، فلقد كنت أحب أن أركبكم إياه منذ زمن طويل لولا كم أنتم ، ولكن هيا بنا نستفد مما نحن فيه ، فعلى مقربة منا مدينة اسمها « زارا » لقينا الأذى الجسيم على أيدى أهلها ، وإننى لراغب أنا وشعبى فى الثأر منهم لو وجدنا إلى الثأر سبيلا ، فإن وثقتم بى قصدناها وأمضينا بها هذا الشتاء حتى قرابة عيد الفصح ، وبعدئذ نعد أسطولنا ونذهب إلى ما وراء البحر فى سبيل خدمة الرب ، لأن زارا مدينة جميلة جداً وحافلة بكل ما هو طيب » .

فوافق البارونات وكبار الصليبيين على ما قاله الدوج ، أما الجيش بأجمعه فلم يعرف شيئاً ما عن هذه الخطة التى لم يقف على خبرها سوى أعظم رجالاته[1]. وإذ ذاك أعدّوا عُددهم وسفنهم وأنزلوها إلى البحر ، واستقل كل واحد من كبار الرجال وأتباعه بسفينته الخاصة ، كما أخذ مركب حمولته لنقل جياده ؛ أما الدوج فكان معه خمسون غراباً أعدّها كلها على نفقته الخاصة ، وكانت السفينة التى يركبها قرمزية نُشرت فوقها خيمة من الساميت القرمزى ، كما كان بها أربعة أبواق فضية تنفخ أمامه وطبول تدق دقاً قوياً ، فلما حان وقت الرحيل ، أظهر جميع كبار رجالات

(١) فى هذه العبارة إشارة صريحة إلى التدبيرات السرية المفصحة عن أطماع كبار السادة الصليبيين وتسخيرهم الجموع المسيحية لتحقيق مآربهم ولو على حساب النصرانية .

الحملة وأهل الدين والعلمانيون ـ صغيرهم وكبيرهم ـ فرحاً عظيما لم يشاهد قط مثله ، وكان أسطولا لم تقع على مثله عين ، ولا سمعت بنضوه أذن ، وإذ ذاك قام الحجاج فطلبوا إلى القسس ورجال الدين كافة أن يعتلوا مؤخرات السفن العالية وأن ينشدوا Veni Creator Spiritus واستخرط كل فرد ـ صغيراً كان أم كبيراً ـ فى البكاء انفعالا وشعوراً بالفرح العظيم الذى فاضت به نفوسهم .

١٥ — ولما انطلق هذا الأسطول من ميناء البندقية [بما هو عليه] وانطلقت الأغربة والسفن الضخمة وغيرها من القوارب الكثيرة كان المنظر من أجمل ما رأته العين منذ أن خلق الله الدنيا ، إذ كان هنالك مائة زوج من الأبواق الفضية والنحاسية كلها تنفخ عند الرحيل ، كما كان ثَمَّ العديد من الطبول والدفوف وغيرها من الآلات مما كان أعجوبة رائعة ، حتى إذا صاروا فى عرض ذلك البحر ونشروا قلاعهم ، ورفعوا راياتهم على مؤخرة السفن وأظهروا رنوكهم خيل للناظرين كأن البحر يضطرب بأجمعه من فرحة القوم ، وأنه استحال إلى شعلة من نار من جراء السفن التى تمخر عبابه ، وظلوا سائرين حتى بلغوا مدينة اسمها بولا Pola فأرسوا عندها للاستجمام ، وتلبثوا بها برهة من الزمن حتى تم لهم جميعاً خزن ما يريدون وشراء ذخيرة جديدة أوسقوا بها مراكبهم ، ثم أبحروا مرة ثانية ، وإذا كان سرورهم واحتفالهم عظيمين من قبل ، فقد فعلوا مثل هذين أو أكثر هذه المرة حتى لقد استبدت الدهشة بأهل المدينة من هذا الفرح العظيم ، ومن طلعة ذلك الأسطول القوى ومنظره الرائع وقالوا — وكان حقاً ما قالوا — إنه لم يُرقط أسطول أروع أو أغنى من هذا الأسطول الذى يرونه ولم يحدث أن تجمع مثله فى أى بلد من البلاد .

الاستيلاء على زارا

١٦ — ظل البنادقة والحجاج مبحرين حتى بلغوا زارا ليلة عيد القديس سنت مارتن ، وإذ ذاك استبد الفزع بمن فى المدينة حينما طالعتهم هذه السفن وأبصروا اقتراب ذلك الأسطول الضخم منهم ، فبادروا إلى غلق أبواب المدينة وهبوا إلى سلاحهم للدفاع عن أنفسهم جهد ما أمكنهم ، فلما تسلحوا خاطب الدوج جميع كبار رجالات الجيش قائلا لهم : « أيها السادة ، لقد أنزلت هذه [المدينة] أشد الضرر وبالغ الأذى بى وبشعبى وإنه لمما يملؤ نفسى غبطة أن أنتقم لنفسى منها ، لذلك أسألكم مساعدتى » . فأجابه البارونات وكبار الرجال أنهم معاونوه عن طيب خاطر .

١٧ — ولما كان أهل زارا يدركون حق الإدراك مبلغ كراهية البنادقة لهم فقد حصلوا على كتاب[1] من رومة يتضمن حرمان كل من تحدثه نفسه بمحاربتهم أو مسهم بسوء ، لذلك أرسلوا هذا الكتاب صحبة رسل أفاضل إلى الدوج وإلى الحجاج الذين كانوا قد أرسوا هناك ، فلما بلغ الرسل المعسكر تلى الكتاب أمام الدوج والحجاج ، حتى إذا فرغوا من تلاوته واستوعبه الدوج ، قال الدوج إنه لن يتراجع عن أخذ ثأره من المدينة ، وإنه ما من قوة تثنيه عن عزمه حتى ولو كانت قرار الحرمان البابوى ، وحينذاك انصرف الرسل ، وعاد الدوج ثانية إلى خطاب البارونات فقال لهم : « أيها السادة ، اعلموا علم اليقين أنى لن أتخلى بأى حال من

(١) المقصود بذلك قرار الحرمان الذى أصدره البابا بالتهديد لمن يمس مسيحياً .

الأحوال عن الانتقام من هؤلاء حتى ولو كان هناك قرار البابا بالحرمان » ثم سأل البارونات أن يعاونوه ، فأجابوه جميعهم أنهم مساعدوه عن طيب خاطر ، ولم يشذ عنهم سوى « سيمون كونت مونتفورت » وسيدى انجيراندى بوفيز Enguerrand اللذين أعلنا أنهما لن يفعلا شيئاً فيه مخالفة لأوامر البابا الرسولى وأنهما كارهان أن يصدر ضدهما قرار الحرمان ، ومن ثم أخذا فى الاستعداد للرحيل وانطلقا مسافرين إلى المجر لتمضية فصل الشتاء بأكمله هناك .

١٨ — فلما رأى الدوج أن البارونات مستعدون لمعاونته ، أمر بنصب آلاته لمهاجمة المدينة ، وظل يحاربها حتى أدرك أهلوها أن لم تعد لديهم قدرةعلى المقاومة ، ومن ثم التمسوا من الصليبيين الرحمة بهم وأسلموا الغزاةالمدينة ، فدخلها الحجاج والبنادقة فقسموها نصفين ، أخذ الحجاج أحدهما ، واستولى البنادقة على النصف الآخر .

التفكير فى اليونان

١٩ — ثم حدث بعدئذ أن شب عراك عنيف بين البنادقة وجمهور شعب الحجاج استمر طوال الليل حتى منتصف النهار التالى ، وبلغ هذا العراك شدة كبرى حتى لم يعد فى قدرة الفرسان الفصل بين المتقاتلين إلا بعد يأس ، فلما فصلوا بينهم أبرموا صلحاً كريماً أزال شوائب سوء النية من نفوس كلا الفريقين ، وإذ ذاك أخذ كبار رجالات الصليبيين والبنادقة يتباحثون فيما بينهم حول قرار الحرمان الكنسى الذى صدر ضدهم بسبب هجومهم على المدينة التى استولوا عليها ، واستقر رأيهم أخيراً على أن يرسلوا إلى روما من يلتمس صدور قرار الغفران ، فأنفذوا

إليها أسقف سواسون وسيدى روبرت دى بوفين ، فحصل هذان الرجلان من البابا الرسولى على خطاب يتضمن العفو عن جميع الحجاج وجميع البنادقة ، فلمّا صار هذا الكتاب فى يمينهما بادر الأسقف بالعودة من رحلته على جناح السرعة ولم يصحبه سيدى روبرت دى بوفين ، وذهب من رومة إلى البلاد الواقعة فيما وراء البحر مباشرة .

٢٠ — وفى هذا الوقت بالذات ، أعنى خلال فترة الشتاء التى أمضاها هنا الصليبيون والبنادقة ، هال الصليبيين ضخامة ما أنفقوه من الأموال فتشاوروا فيما بينهم ، ورأوا أنهم لن يستطيعوا المضىّ إلى القاهرة أو الإسكندرية أو إلى بلاد الشام لعدم وجود ذخيرة أوأموال فى أيديهم تعينهم على الذهاب إلى هذه الأماكن ، فقد أنفقوا تقريباً كل ما عندهم من جراء طول تأخرهم ، وبسبب ما دفعوه من ثمن غال لاستئجار الأسطول ، ومن ثم قالوا إنهم لا يستطيعون الذهاب ولو ذهبوا فلن يكونوا قادرين على عمل شىء لانعدام المال معهم وعدم توفر ذخيرة يعيشون عليها .

٢١ — فلما أيقن دوج البندقية شدة حرج موقف الحجاج ، تحدث إليهم قائلا : « أيها السادة ، إن فى بلاد اليونان أرضا شديدة الخصب ، زاخرة بكل طيب ، والخطة المثلى عندى أن نلتمس ذريعة معقولة تبرر ذهابنا إلى هناك لنتزوّد بما بها من المئونة وسواها لإصلاح أمورنا ، وإذ ذاك نكون قادرين كل القدرة على متابعة السفر إلى ماوراء البحار » .

وعندئذ نهض الماركيز قائلا : « أيها السادة ، لقد كنت فى عيد الميلاد المنصرم بألمانيا فى بلاد مولاى الإمبراطور ، ورأيت هناك شاباً

هو أخو زوجة إمبراطور ألمانيا ، وهذا الشاب هو « ألكسيوس بن إسحاق » إمبراطور القسطنطينية الذى انتزع أخوه منه إمبراطورية القسطنطينية غدراً وخيانة ، فمن استطاع الاستحواذ على هذا الشاب تمكن جيداً من الذهاب إلى القسطنطينية والحصول على الذخائر وغيرها لأنه هو الوريث الشرعى » .

* * *

مانويل وميله للاتين

٢٢ — وسندع الآن جانباً الكلام عن الحجاج والأسطول ، وسنخبرك عن هذا الشاب وعن أبيه الإمبراطور إسحاق وكيف ظهرا .

كان هناك ذات مرة ، إمبراطور فى القسطنطينية اسمه مانويل ، وكان رجلاً فاضلاً عادلاً ، وكان يعد أغنى مسيحي وقته قاطبة وأنداهم يداً ، ولم يحدث أن سأله أحد قط شيئاً تملكه يمينه (على أن يكون هذا السائل من اللاتين أتباع كنيسة رومة ، وتمكنه الظروف من التحدث إليه) إلا ووصله بمائة مارك ، أو هذا على الأقل ما سمعناه يروى عنه .

٢٣ — وكان هذا الإمبراطور عظيم الحب للفرنسيين ، شديد الثقة بهم ، وحدث ذات يوم أن أسرف قومه ومشيروه فى لومه ، كما كان دأبهم على ذلك معه مرارا عديدة من قبل ، وبالغوا فى لومه على شدة كرمه وحبه القوى للفرنسيين ، فقال لهم الإمبراطور : « هناك إثنان لهما الحق فى الإعطاء هما : السيد الرب وأنا ، على أنكم إذا أردتمونى أن أطرد جميع من فى خدمتى من الفرنسيين ومن حولى من اللاتين فإنى فاعل ذلك » ، ففرح الإغريق أشد الفرح بما قال ، وقالوا له : « إذن تكون

إذ ذاك يامولانا قد فعلت شيئاً طيباً جداً . وسنخلص فى خدمتك كل الإخلاص » . ومن ثم فقد أصدر الإمبراطور أمره إلى جميع الفرنسيين بالرحيل ، وسرّ الإغريق بهذا أكثر من سرورهم بأى شىء آخر .

٢٤ — غير أنه بعث سرا إلى جميع الفرنسيين وإلى بقية من أقصاهم عن خدمته ، يطلب إليهم موافاته ومحادثته على انفراد ، ففعلوا ما أمرهم به ، حتى إذا صاروا فى حضرته قال لهم الإمبراطور : « أيها السادة ، إن قومى لايدعوننى فى استقرار وهدوء ، فقد طلبوا إلىّ ألا أعطيكم شيئا ، وأن أنفيكم من بلادى ، وعليكم الآن أن تخرجوا جميعاً معاً ، وسأمضى فى آثاركم أنا وشيعتى من قومى فاذهبوا إلى مكان خاص » (وسمى لهم هذا المكان) ثم قال لهم : « وحينذاك سأبعث إليكم رسلى آمرا إياكم بالرحيل عن الديار ، وإذ ذاك تردُّون علىّ بأنكم غير مغادريها لامن أجلى ولا من أجل شعبى كله ، وزيدوا على ذلك بأن تتظاهروا أنكم زاحفون علىّ ، وإذ ذاك سأرى كيف يكون سلوك قومى » ، ففعلوا كل ما أمرهم به .

٢٥ — فلما ذهبوا بعث الإمبراطور فى طلب جميع رجاله ، وانطلقوا فى آثار الفرنسيين حتى إذا صاروا على مقربة منهم بعث الإمبراطور إليهم آمراً إياهم بالرحيل ومفارقة بلاده ، ففرح الذين نصحوا الإمبراطور بإخراجهم من أرضه غاية الفرح ، وقالوا له : « إذا لم يغادروا البلاد يا مولانا فأذن لنا بالفتك بهم جميعاً » . فأجابهم الإمبراطور : « مرحى بما طلبتم » .

فلما جاء رسل الإمبراطور إلى الفرنسيين ، سلموهم الرسالة فى خيلاء شديدة ، وأمروهم بمغادرة البلاد فوراً ، فأجابهم الفرنسيون بأنهم لن يرحلوا

لا من أجل خاطر الإمبراطور ولا من أجل خاطر قومه كلهم ، فانقلب الرسل على أعقابهم ، وأفضوا بما قاله الفرنسيون ، وإذ ذاك أمر الإمبراطور رجاله بتسليح أنفسهم ومساعدته فى الهجوم على الفرنسيين ، فتسلحوا جميعاً ، وتقدموا شطر الفرنسيين الذين جاءوا لقتالهم ، ورتبوا صفوفهم خير ترتيب .

فلما رأى الإمبراطور أنهم قادمون نحوه لقتاله هو وجماعته قال لرجاله : « أيها السادة ، عليكم الآن أن تتدبروا أمركم جيداً ، فقد آن لكم أن تأخذوا ثأركم منهم » .

٢٦ — فلما قال لهم هذا القول استبد بالإغريق الذعر من اللاتين حين رأوهم قادمين عليهم ، وكان الإغريق يطلقون لفظ اللاتين على جميع أتباع كنيسة رومة ، وأبدى اللاتين ثباتا عظيما فى صد الهجوم ، فلما أبصرهم الإغريق على هذه الحال ولوا منهم فرارا ، وخلّوا الإمبراطور وحده ، فلما رأى ماجرى ، قال للفرنسيين . « أيها السادة ، عودوا معى الآن وسأصلكم فوق الذى وصلتكم به من قبل » .

٢٧ — ومن ثم رجع مستصحباً الفرنسيين ، فلما عاد استدعى إليه رجاله وقال لهم : « أيها السادة ، لقد تبين الآن فى جلاء من ذا الذى يمكن الاعتماد عليه ، فقد وليتم عنى فراراً ، وخلفتمونى وحيداً وقت أن كانت الضرورة تحتم عليكم مساعدتى ، ولوشاء اللاتين قتلى إذ ذاك لمزقونى إرباً ، لذلك آمركم ألا تبلغ الجرأة والجسارة بأحدكم حداً يحمله على أن يسرف كما فعلتم من قبل فيلومنى على كرمى للفرنسيين أو حبى إياهم حباً لامراء فيه ، كما أن ثقتى بهم أعظم من ثقتى بكم ، وسأعطيهم أكثر مما أعطيتهم من قبل » .

ومنذ ذلك الوقت لم يجرؤ الإغريق على محادثته فى هذه المسألة .

الإمبراطور ألكسيوس

٢٨ — كان للإمبراطور ابن رائع جداً من زوجته ، ورتب فيما بينه وبين نفسه أن يختار له أعظم زوجة يستطيع الحصول عليها ، لذلك استجاب لنصيحة من حوله من الفرنسيين ، فبعث كتابا إلى فيليب [أوجست] ملك فرنسا رجاء أن يزوّج أخته لابنه ، وبعث الإمبراطور مانويل إلى فرنسا رسلا من علية القوم خرجوا فى أعظم زينة وأجل موكب ولم تر العين قط قوماً أكثر غنى من هؤلاء الرسل أو أعظم منهم أبهة ، حتى لقد عجب ملك فرنسا ورجاله كل العجب من هذا المظهر الفخم الذى كان يخطر فيه الرسل ممن جاءوا إلى الملك مفضين إليه برغبة الإمبراطور ، فأنبأهم الملك أنه سوف يتدبر الأمر مع باروناته ، فلما تحدث معهم بشأنه نصحوه أن يبعث بشقيقته إلى رجل عظيم القدر بالغ الثروة كالإمبراطور وحينذاك قال الملك للرسل إنه يرحب بإرسال شقيقته إلى الإمبراطور .

٢٩ — بعدئذ جهز الملك أخته أغنى جهاز ، وأنفذها صحبة الرسل إلى القسطنطينية وفى معيتها كثير من رجاله ، فظلوا مسافرين ركوباً دون توقف حتى أدركوا القسطنطينية ، فلما وصلوها بالغ إمبراطورها أعظم مبالغة فى الترحاب بمقدم العروس الشابة وفرح بها هى ورجالها فرحا عظيما .

٣٠ — وفى الوقت الذى بعث فيه الإمبراطور فى طلب هذه العروس أوفد واحداً من ذوى قرباه ممن يؤثره بحبه الشديد — اسمه أندرونيكس — إلى الناحية الأخرى فيما وراء البحار إلى أخته تيودورا ملكة بيت المقدس

كى تحضر حفل تتويج ابنه وقرانه ، ومن ثم ركبت الملكة البحر مع أندرونيكس قاصدة القسطنطينية ، فلما أصبحوا فى عرض البحر افتتن أندرونيكس بالملكة ابنة عمه وهام بها واغتصبها قسراً ، فلما فعل فعلته هذه لم يجرؤ على العودة إلى القسطنطينية ، بل أخذ الملكة معه وحملها بالقوة إلى « قونية » وعاش معها هناك بين جماعة المسلمين .

٣١ — فلما سمع الإمبراطور مانويل أن أندرونيكس فر بأخته الملكة حزن حزنا عظيما ، وإن لم يذهب به الأسى إلى الحد الذى يمنعه من إقامة حفل عظيم لتتويج ابنه وعروسه الشابة ، إلا أن القدر لم ينسأ طويلا فى أجل الإمبراطور مانويل ، فما لبث إلا قليلا حتى مات . فلما بلغ نعيه سمع أندرونيكس الخائن بعث إلى ابنه الذى حل مكانه ملتمساً منه باسم الرب أن يخلى غضبه عليه جانباً ، واحتال عليه حتى أدخل فى روعه ويقينه كذب التهمة التى اتهم بها ، وما لبث الإمبراطور — وكان لا يزال غلاما — ان انفثأ غضبه وبعث فى استقدامه ، وهكذا عاد ذلك المدعو أندرونيكس ، ودأب على ملازمة الطفل الذى اتخذه نائبه فى كل أراضيه واشتدت عجرفته من جراء هذه النيابة التى سيقت إليه .

٣٢ — لم تنقض إلا فترة قصيرة حتى قام أندرونيكس فباغت الإمبراطور ليلا واغتاله هو وأمه أيضاً ، فلما فعل فعلته هذه أخذ حجرين كبيرين وربطهما إلى عنقيهما ، وألقى بهما فى البحر ، وبادر فى الحال إلى تتويج نفسه إمبراطوراً بالقوة ، فلما توج أمر بالقاء القبض على جميع من كان يعرف أنهم ينكرون شرعية ولايته ، وسمل عيونهم جميعاً ثم قتلهم ومثل بهم أشنع تمثيل ، واستولى على جميع النساء الجميلات اللائى وجدهن

وضاجعهن قسراً ، وتزوج الإمبراطورة التى كانت أخت ملك فرنسا وارتكب كثيراً من أعمال النذالة والغدر التى لم يرتكبها فى كثرتها أبداً خائن أو سفاك .

فلما فعل كل هذه الموبقات سأل كبيرا من كبرائه — كان عونه فى ارتكاب كل هذه الشرور — عما إذا كان لا يزال هناك على قيد الحياة من يعتبره إمبراطوراً مغتصباً ، فأجابه أنه لا يعرف أحداً إلا ما يقال من أن بالمدينة ثلاثة شبان من سلالة بيت يدعى بيت أنجيلوس ، وأنهم كبار المنزلة ، ولكنهم ليسوا أغنياء بل فقراء معدمون لا حول لهم ولا قوة .

٣٣ — فلما أيقن الإمبراطور أندرونيكس بحقيقة انتساب هؤلاء الشبان الثلاثة إلى تلك الأسرة ، أمر نائبه هذا — وكان رجلا شريرا لا يقل عن مولاه غدرا — أن يذهب إليهم ويلقى القبض عليهم ويشنقهم أو يميتهم ميتة أخرى كريهة . فمضى الخادم لإلقاء القبض على هؤلاء الإخوة الثلاثة ، ولكنه لم يأخذ سوى واحد منهم فقط ونجا الآخران ، فسمل عينى الذى وقع فى يده وما لبث أن ترهب . وأما الأخوان فقد هربا ، فذهب أحدهما ويدعى اسحق إلى إقليم يسمونه ولاشيا ، ومضى ثانيهما إلى أنطاكية حيث أسره المسلمون أثناء غارة قام بها النصارى عليهم .

٣٤ — كان الشاب الذى فر إلى ولاشيا قد بلغ من الفقر حدا عجز فيه عن إعالة نفسه ، وحملته شدة متربته على العودة إلى القسطنطينية ، واستخفى فى بيت أرملة بالمدينة ، ولم يكن لديه من متاع الدنيا سوى بغل وخادم واحد ، فكان هذا الأخير يكسب قوته من وراء بغله وتحميله بالشراب وغيره ، وهكذا استطاع هو وسيده اسحق أن يقيما أودهما .

غير أن الخبر تسرب فى النهاية إلى الإمبراطور أندرونيكس الخائن بصدق عودة هذا الشاب إلى المدينة ، وإذ ذاك أمر نائبه الذى كان مكروها كل الكراهية من جميع الناس من جراء الشرور التى كان يرتكبها يوميا ، أقول إنه أمر نائبه هذا بأن يمضى فيقبض على إسحق ويشنقه .

ومن ثم امتطى الخادم ذات يوم صهوة جواده ، واستصحب معه حشداً كثيفاً من الناس وذهبوا إلى بيت المرأة الصالحة حيث يقيم اسحق ، فلما بلغه النائب ، طلب إلى من معـــه أن ينادوا لدى الباب على المرأة الصالحة التى جاءت وهى تعجب أشد العجب مما يريده ، فأمرها بإخراج الشخص المختفى فى دارها ، فأجابته المرأة الفاضلة : « مولاى ، وحق رحمة الله ، ليس بداخل منزلى أحد يستخفى » ، فأمرها مرة ثانية بإظهاره وأنذرها أنه ملق القبض عليهما معاً إن لم تبادر إلى إخراجه .

٣٥ — فلما سمعت المرأة الصالحة هذا القول ، استبد بها الخوف من هذا الشيطان الذى ارتكب كثيرا من الشرور وانفلتت إلى الدار وجاءت إلى الشاب قائلة له : « سيدى إسحق الكريم ، إنك ميت لامحالة ، فلقد وقف بالباب نائب الإمبراطور ومعه كثير من الناس الذين جاءوا للتفتيش عنك بغية هلاكك وقتلك» ،فأرمض الحزن نفس الشاب غاية الإرماض حين سماعه هذا النبأ . بيد أنه برز لهم ، إذ لم يكن ثم سبيل آخر يجنبه المضى لمقابلة النائب ، إلا أنه أخذ سيفه وأخفاه تحت سترته ، وخرج من البيت وجاء إلى النائب وقال له : « ما الذى تريده منى ياسيدى ؟ » فبادر إلى الرد عليه رداً قبيحاً قائلا له : « أيها الحقير القذر ، إن هؤلاء ماضون لشنقك».

٣٦ — وإذ ذاك أدرك إسحق أنه لا بد له من المضى معهم رغم أنفه ، وسره أن ينتقم لنفسه من أى واحد منهم ، ومن ثم اقترب كل الاقتراب من النائب واستل سيفه ، وضربه به ضربة نزلت على أم رأسه ففلقتها حتى بلغت أسنانه .

تتويج إسحق إمبراطورا

٣٧ — فلما رأى جند النائب ومن معه ما فعله الشاب إسحق من فتكه بالنائب فروا هاربين ، وإذ ذاك أخذ الشاب بمقود حصان النائب الذى قتله وركبه والسيف مازال فى يده تقطر منه الدماء ، وانطلق لتوه إلى كنيسة القديسة صوفيا ، ودأب أثناء ركوبه على الهتاف بالناس الذين اكتظت بهم الشوارع وهم فى دهشة من الجلبة التى يسمعونها ، وراح الشاب يستنجد بهم قائلا : « أيها السادة ، استحلفكم بحق رحمة الله ألا تقتلونى ، فقد أهلكت الشيطان القاتل الذى جلل بالعار العظيم أهل هذه المدينة وسواهم » ، حتى إذا وصل إلى كنيسة القديسة صوفيا ، ارتقى المذبح واحتضن الصليب رغبة منه فى إنقاذ حياته ، ثم تعالت الجلبة والصياح فى المدينة ، وشرقت الصيحة وغربت وسرى الخبر فى كافة أرجاء المدينة بأن إسحق قد فتك بذلك الشيطان القاتل ، فلما سمع أهل المدينة بهذا النبأ ، استبدت بهم الفرحة ، وراح كل منهم يجرى بأقصى ما تسعفه قوته إلى كنيسة القديسة صوفيا لتكتحل عيناه برؤية ذلك الشاب الذى قام بهذا العمل الباسل ، فلما التأم شمل القوم أجمعهم بالكنيسة أخذ كل منهم يقول للآخر : « يالله لبسالته وشجاعته إذ استطاع القيام بهذا العمل العظيم » . وأخيراً قال الإغريق فيما بينهم : «هيا بنا نسلك جادة الصواب ، فننصب

هذا الشاب إمبراطوراً » ، وأخيراً انعقد إجماعهم على ذلك التنصيب ، ومن ثم بعثوا إلى البطرك الذى كان إذ ذاك فى قصره وطلبوا إليه الحضور لتتويج إمبراطور جديد اختاروه بأنفسهم .

فلما سمع البطرك مقالتهم ، ذكر لهم أنه لن يفعل شيئاً من هذا القبيل وراح يقول لهم : « أيها السادة إنكم ترتكبون أمرا إدًّا ، ألا فاهدأوا واسكنوا ، فإنكم إذ تقومون بهذا العمل إنما تتنكبون محجة الصواب ، ولو توّجته لقتلنى الإمبراطور أندرونيكس ومزقنى إرباً » . فأجابه اليونان أنهم مطيحون برأسه إن لم يتوجه ، ومن ثم نزل البطرك من قصره رغم أنفه خائفاً مذعوراً ، ومضى إلى الكنيسة حيث كان إسحق فى عباءة رثة بالية وملابس خلقة . وكان إسحق هذا هو الذى بعث إليه الإمبراطور أندرونيكس بنائبه ورجاله فى هذا اليوم نفسه لإلقاء القبض عليه والفتك به ، ومن ثم لبس البطرك ملابس الكهنوتية ، وتوج اسحق راضياً أم كارهاً .

فلما فرغ من تتويجه سرى هذا النبأ فى المدينة حتى بلغ مسامع أندرونيكس ، وعلم أيضاً أنه فتك بنائبه ، فأنكر ما سمعته أذناه ، فبعث برسل من قبله لاستجلاء حقيقة الخبر ، فلما وصلوا إلى هناك تأكدلديهم صدق النبأ ، فعادوا التوهم إلى الإمبراطور قائلين له : « مولانا ، إن كل ما سمعته حق » .

٣٨ — فلما أدرك الإمبراطور أن الخبر لم يعد كبد الحقيقة : نهض مستصحباً معه كثيراً من رجاله وشخص إلى كنيسة القديسة صوفيا عبر ممر يصل بينها وبين قصره ، فلما بلغها تسلق عقود أقبيتها ، وشاهد الشخص الذى توج ، فما كادت تقع عليه عيناه حتى اشتد به الغضب ،

وسأل رجاله عما إذا كان أحدهم متنكباً قوسه ، فجاءوه بقوس وسهم ، فأخذ أندرونيكس القوس ووتره مسددا إياه لضرب إسحق ضربة تصيب منه مقتلا ، وكان إسحق قد تم تتويجه ، وبينما هو يوتر القوس إذا بالحبل قد انقطع فعظم حزنه ، واشتد به القنوط ، وعاد إلى قصره آمرا رجاله بالانصراف لإغلاق الأبواب وتسليح أنفسهم والدفاع عن القصر ففعلوا ما أمرهم به .

٣٩ — على أنه غادر القصر فى الوقت ذاته وجاء إلى باب سرى خلفى وهرب من المدينة ونزل هو وجماعة من رجاله فى زورق كبير وركب وإياهم البحر ، لأنه كان لايحب أن يقع أسيراً فى أيدى أهل المدينة الذين استصحبوا معهم الإمبراطور الجديد وشخصوا به إلى القصر الذى استولوا عليه بالقوة ، وأنزلوا به الإمبراطور إسحق وأجلسوه على عرش القسطنطينية ، فلما جلس عليه بجلوه باعتباره الإمبراطور المقدس .

٤٠ — وسر الإمبراطور سرورا عظيما بالشرف المظفر الذى منّ الرب به عليه فى ذلك اليوم ، وقال للناس : « أيها السادة ، انظروا إلى آية الشرف العظيم الذى منحنى الله إياه ، إذ هيأ لى أن أتوّج فى نفس اليوم الذى كانوا ماضين بى فيه لقتلى ، وإنى لمتنازل لكم الآن عن كل الثروة التى فى هذا القصر اعترافا منى بالفضل العظيم الذى طوقتمونى به » .

فلما سمع الناس ما قاله الإمبراطور فرحوا أشد الفرح بالهدية الجليلة التى وصلهم بها فانطلقوا إلى الخزانة ووجدوا بها كثيرا من الذهب والفضة مما كان عجيبا ، وتقاسموا ذلك كله فيما بينهم .

القبض على أندرونيكس

٤١ — وحدث فى نفس الليلة التى فر فيها أندرونيكس أن اضطرب البحر بعاصفة هوجاء وصحبتها زوبعة عاتية وريح عنيفة ، وانطلق الرعد والبرق حتى عميت السبل على أندرونيكس هو ورجاله فلم يعرفوا أين يذهبون ، فردتهم العاصفة والزوبعة إلى القسطنطينية دون أن يعرفوا أنهم قد عادوا إليها ، فلما رأوا أن قاربهم قد جنح بهم إلى الشاطىء ، وأنهم لايستطيعون الإبحار قدما ، قال أندرونيكس لرجاله : « أيها السادة ، ألا خبرونى أين نحن الآن ! » ، فلما نظروا وعرفوا فى الحال أنهم قد عادوا إلى القسطنطينية ، قالوا لأندرونيكس : « يامولانا ، نحن هالكون ، فقد رجعنا إلى القسطنطينية » فلما سمع أندرونيكس قولهم حزن حزناً شديداً لم يدر معه ما يفعل ، وقال لرجاله : « أيها السادة ، أستحلفكم بالله أن تأخذونا إلى مكان بعيد عن هنا » . فأجابوه أنهم لايستطيعون متابعة السفر حتى ولو قطع رقابهم .

ولما عرفوا عجزهم عن الابتعاد عن هذا المكان ، أخذوا الإمبراطور أندرونيكس وساروا به إلى خان وأخفوه وراء قنانى الشراب ، فتطلع إليهم صاحب الخان وزوجته وتمعنا فيهم مليًّا ، وعلما علم اليقين أنهم رجال الإمبرطور أندرونيكس ، وحدث فى النهاية أن راحت زوجة صاحب الخان تتفقد قنانى الخمر فأبصرت أندرونيكس جالساً وراءها فى ملابسه الإمبراطورية فعرفته فى الحال، فأنكفأت إلى زوجها وقالت له : « سيدى إن أندرونيكس الإمبراطور مختف هناك » ، فلما سمع الخمَّار قولها بعث رسولا من قبله إلى رجل معين من كبار الشخصيات يسكن على مقربة منه

فى قصر كبير ، وكان أندرونيكس قد قتل أباه ، كما ضاجع زوجة هذا الكبير من قبل .

فلما جاء الرسول إلى هناك ، قال لهذا الرجل الكبير : إن أندرونيكس فى بيت صاحب خان . وسمّاه له .

فلما سمع هذا الرجل الكبير أن أندرونيكس فى بيت صاحب هذا الخان سر سروراً عظيما بهذا الخبر ، ومضى مع فئة من رجاله إلى بيت صاحب الخان وأمسك بأندرونيكس وقاده إلى قصره .

٤٢ — فلما كان صباح اليوم التالى ، أخذ الرجل الكبير أندرونيكس وقاده إلى القصر ، ومثل به أمام الإمبراطور إسحق الذى قال له حين رآه : « لماذا غدرت يا أندرونيكس بولىّ نعمتك الإمبراطور مانويل ، ولماذا اغتلت زوجته وفتكت بابنه ؟ ، ولماذا كنت تجد اللذة فى ارتكاب كثير من الشرور فى حق من يرون الشر فى صيرورتك إمبراطورا ، ولماذا أردت القبض علىّ ؟ » . فأجابه أندرونيكس : « أمسك لسانك فلن أتنازل بالرد عليك » ، فلما سمع الإمبراطور إسحاق أن أندرونيكس لن يتنازل بالإجابة عليه بعث فى استدعاء جماعات كثيرة من أهل المدينة إليه حتى إذا أصبحوا فى حضرته ، قال لهم : « أيها السادة ، ها هو ذا أندرونيكس الذى ارتكب آثاما جساماً فى حقكم وحق سواكم ، وأحسب أنى لن أستطيع أن أعدل فيه وفق رغباتكم جميعاً ، لذا فإننى أسلمه إليكم لتفعلوا به ما تريدون » .

٤٣ — وإذذاك فرح أهل المدينة فرحا شديداً ، وأخذوا أندرونيكس فارتأى البعض حرقه حياً ، واقترح آخرون وضعه فى دست يغلى به الماء

ليزداد ألمه ، ورأى البعض الآخر جره فى الشوارع ، ولم يستطيعوا الاتفاق فيما بينهم على نوع الموت الذى يسقونه كأسه أو العذاب الذى يذيقونه إياه ، حتى قام أخيراً من بينهم رجل عاقل ، فقال : « أيها السادة لو أنصتم إلىّ فإنى سأريكم كيف يكون انتقامنا منه ، إن لدى بمنزلى بعيراً هو أخس حيوانات الأرض وأبغضها إلى النفس ، فلنأخذ أندرونيكس ونجرده من ثيابه ونقيده على ظهر هذا الجمل مولياً وجهه ظهره ، ونطوف به أرجاء المدينة قاصيها ودانيها ، وإذ ذاك يستطيع كل من آذاهم أندرونيكس — رجالا كانوا أم نساء — أن يثأروا منه أشد ثأر » .

٤٤ — فارتضوا جميعاً هذا الاقتراح ، وأخذوا أندرونيكس وقيدوه وفق ما قاله ذلك الرجل ، وبينما كانوا يسيرون به فى المدينة ، راح الذين أخطأ فى حقهم يحصبونه ويمزقونه ويصفعونه ، فكان منهم من يضربه بالمدى ، ومنهم من يطعنه بالخناجر ، وغيرهم ينوشه بالسيوف ، وهم ما بين قائل له : « لقد شنقت أبى » ، وقائل له : « لقد اغتصبت زوجتى قهراً » . أما النساء اللواتى اغتصب بناتهن جبراً ، فقد أمسكن بلحيته ورحن يجذبنها فى أيديهن ويلعنه بالسب والتقريع حتى إذا وصلوا به إلى طرف المدينة الآخر لم يكن قد بقى على عظمه لحم ، وإذ ذاك أخذوا عظامه ، وقذفوا بها فى المجارى ، وبهذا الأسلوب الحكيم انتقموا لأنفسهم من هذا الخائن .

٤٥ — ومنذ ذلك اليوم الذى أصبح فيه إسحاق إمبراطوراً ، صَوَّر فوق أبواب الكنائس كيف صيرته إحدى المعجزات إمبراطوراً وقد وقف سيدنا على أحد جانبيه ، وسيدتنا على الجانب الآخر ، وهما يضعان التاج

على رأسه ، ورسموا أيضاً ملكا يقطع حبل القوس الذى أراد أندرونيكس رميه به لقتله ، ولذلك يقال ، إن بيته يسمى بيت « أنجيلوس » .

٤٦ — بعدئذ رغب الإمبراطور رغبة قوية فى رؤية أخيه الذى كان فى أسر المسلمين لذلك اختار جماعة من الرسل وأرسلهم للبحث عنه ، فدأبوا فى تقصى خبره حتى علموا أين سجنه ، فمضوا إليه فيه ، فلما جاءوا إلى هنالك ، سألوا عنه المسلمين الذين كان قد ترامى إلى سمعهم أن هذا الشاب هو أخو إمبراطور القسطنطينية ، فغالوا فى إطلاق سراحه ، وقالوا إنهم لن يطلقوه إلا بعد دفع فدية كبيرة ، فأعطاهم الرسل كل ما طلبوه من الذهب والفضة ، ثم عادوا به إلى القسطنطينية بعد افتدائهم إياه .

سُرَّ الإمبراطور إسحاق حين شاهد أخاه سروراً عظيماً ، وأكرمه غاية الإكرام ، كذلك فرح هذا الأخ أشد الفرح حين عرف أن أخاه قد أصبح إمبراطوراً ، وأنه تمكن من أخذ الإمبراطورية بقوته .

ألكسيوس الثالث

٤٧ — كان اسم هذا الشاب ألكسيوس ، ولم تنقض إلا برهة قصيرة حتى نصبه أخوه الإمبراطور نائبه ، وجعله المتصرف الأعلى على جميع أراضيه ، فازدهته الكبرياء بهذه النيابة ، حتى لقد سرت الرهبة منه فى الإمبراطورية بأكملها ، وأصبحت تخافه لقرابته من الإمبراطور ولشدة حب الإمبراطو له .

وحدث بعد ذلك أن خرج الإمبراطور ذات يوم للقنص فى غابته ، فما كان من أخيه ألكسيوس إلا أن مضى هو الآخر أيضاً إلى الغابة حيث

كان الإمبراطور وأخذه غدراً وخيانة ، وسمل عينيه ، فلما فرغ من ذلك زج به فى السجن بطريقة خفى خبرها على كل الناس ، ثم عاد إلى القسطنطينية وأدخل فى روع أهلها أن أخاه الإمبراطور قد مات ، ثم توج نفسه بالقوة إمبراطوراً .

فلما رأى القائم بحراسة ابن الإمبراطور إسحاق ، أن العم قد غدر بأبى الطفل ، وأنه قد أصبح إمبراطورا بالخيانة ، خاف أن يفتك العم بالغلام ، فلم يكن منه إلا أن أخذه ، وبعث به إلى أخته بألمانيا ، لأنها كانت زوجة إمبراطور ألمانيا [فيليب دى سوابيا] ، وكان هذا الطفل هو الوريث الشرعى وأحق من عمه ألكسيوس فى العرش .

ألكسيوس الرابع فى المعسكر الصليبى

٤٨ — لقد سمعت كيف قام إسحاق ، وكيف أصبح إمبراطوراً ، وكيف ذهب ابنه إلى ألمانيا ، وهذا الإبن هو الذى سوف يرسل الصليبيون والبنادقة فى طلبه استجابة لنصيحة زعيمهم المركيز دى مونتفرات ، كما سمعت فى القصة ، كى يجدوا حجة لهم فى الذهاب إلى القسطنطينية .

٤٩ — والآن فإننا سنقص عليك خبر هذا الشاب والصليبيين ، وكيف بعث الصليبيون فى طلبه ، وكيف كان ذهابهم إلى القسطنطينية وغزوهم إياها .

لما أخبر المركيز الحجاجَ والبنادقةَ أن من يكن عنده هذا الشاب الذى تكلمنا عنه حالاً سيجد خير ذريعة للذهاب إلى القسطنطينية والحصول على الذخائر جهز الصليبيون فارسين من خيرة الفرسان أحسن

جهاز ، وبعثوا بهما إلى ألمانيا ليجيئا بهذا الشاب ، وبعثوا إليه معهما بكلمة يخبرانه فيها أنهم سيساعدونه فى استرادد حقوقه .

فلما بلغ الرسولان بلاط إمبراطور ألمانيا حيث يقيم [الشاب] ، أفضيا إليه بالرسالة التى كلفهم الصليبيون بحملها إليه ، فلما سمعها الشاب وعلم بالعرض الذى يقدمه إليه كبار رجال الصليبيين ، سُرَّ سروراً شديداً ، ورحب به غاية الترحيب وأكرم وفادة الرسولين ، وقال لهما إنه سيتدبر الأمر مع زوج أخته الإمبراطور الذى قال له — وقد عرف نحواه — إن هذه فرصة طيبة واتته ، وأبدى تأييده التام لفكرة ذهابه إلى الصليبيين ، مبيناً له أنه لن يستطيع أبداً استرداد شىء من إرثه إلا بمعونة الرب ومساعدة الصليبيين .

وإذ أيقن الشاب أن الإمبراطور قد محضه النصيحة الخالصة ، فقد جهز نفسه بأحسن ماالديه ورحل مع الرسولين .

٥٠ — وحدث قبل وصول الشاب والرسولين إلى زارا ، أن كان الأسطول قد ذهب إلى جزيرة كورفو نظراً لانقضاء عيد الفصح بعد أن ترك وراءه غرابين فى انتظار الرسولين والشاب ، ومن ثم بقى الحجاج فى جزيرة « كورفو » حتى مجىء الشاب والرسولين ، فلما جاءوا إلى زارا وجدوا هذين الغرابين اللذين تركهما الصليبيون لهم فركبوا البحر وأقلعوا وظلوا مسافرين حتى بلغوا كورفو حيث كان الأسطول راسياً ؛ وإذ أبصر القوم الشاب قادماً هبُّوا كلهم إلى استقباله وحيوه وأكرموا وفادته أعظم إكرام ، فلما رأى أن كبار القوم يبالغون فى تعظيمه وشاهد الأسطول بكامل قطعه

راسياً هناك فرح فرحة لم يفرحها إنسان قط قبله ، ثم تقدم إليه المركيز وسار به إلى خيمته .

٥١ — حين أصبح الشاب فى فسطاط المركيز توافد عليه جميع كبار البارونات ودوج البندقية وتناول حديثهم أموراً عدة وأفضى بهم الأمر أخيراً لأن يسألوه عما سيقدمه لهم إن هم نصبوه إمبراطوراً على القسطنطينية وتوجوه بها ، فأجابهم بأنه سوف يلبى كل مطلب لهم ، وحينذاك أخذوا يتناقشون حتى قال إنه سوف يدفع للجيش مائتى ألف مارك وسيموّن الأسطول مدة عام آخر بأكمله على نفقته الخاصة ، وسوف يرافقهم فى ذهابهم إلى ما وراء البحر على رأس جميع قواته ، وسيقيم فى بلاد ما وراء البحر عشرة آلاف رجل ينفق عليهم من ماله الخاص طول أيام حياته ، كما أنه سوف يتكفل بتموين جميع من يغادرون القسطنطينية إلى ما وراء البحار .

فكرة الذهاب إلى القسطنطينية

٥٢ — حينذاك نودى باستدعاء جميع بارونات الحملة والبنادقة ، فلما التأم شملهم جميعاً نهض دوج البندقية وخطب فيهم قائلا : « أيها السادة ، لقد تهيأت لنا خير حجة للذهاب إلى القسطنطينية — إذا وافقتم عليها — لوجود وريثها الشرعى معنا »

غير أنه كانت بينهم جماعة لم توافق مطلقاً على المضى إلى القسطنطينية قال رجالها : « يالله ! وماذا سنفعل فى القسطنطينية ؟ إن علينا أداء حجنا ولقد رسمنا خطتنا على أن نذهب إلى القاهرة أو الاسكندرية ، وزيادة على

ذلك فإن بحريتنا ستتبعنا مدة سنة واحدة فقط ، وهاقد انقضى من العام نصفه » .

فأجابهم الآخرون « وماجدوى ذهابنا إلى القاهرة أو الإسكندرية ونحن لانملك من الذخيرة أو المال ما يمكننا من الذهاب إليهما ؟ وإنه لأجدى علينا — قبل المضىّ إلى هناك — أن نتلمس طريقة مشروعة توفر لنا المعونة والمال فذلك أجدى علينا من أن نرحل إلى هناك ونهلك جوعاً ، فإن وجدنا الطريقة أصبحنا قادرين على إنجاز شىء ما ، هذا بالإضافة إلى أنه[1] يعرض علينا المجىء معنا وتمويل أسطولنا وبحريتنا لمدة عام آخر على نفقته الخاصة » .

وكان المركيز دى مونتفرات أشدهم تحمساً فى حمل القوم على الذهاب إلى القسطنطينية أكثر من أى شخص آخر ، لأنه كان يريد الانتقام لنفسه لإهانة كان قد ألحقها به المتربع إذ ذاك على عرش الإمبراطورية فى القسطنطينية .

حقد مونتفرات على بيزنطة

٥٣ — وسندع الآن جانباً الكلام عن الأسطول ونحدثك عن الإهانة التى كان المركيز حاقداً من أجلها على القسطنطينية .

حدث ذات مرة أن حمل أخوه المركيز كونراد الصليب وذهب إلى القسطنطينية فيما وراء البحار فى غرابين ، فلما بلغ القسطنطينية تحدث إلى إمبراطورها الذى حياه ورحب به ، وكان هناك فى هذا الوقت بالذات

(١) المقصود بذلك ألكسيوس الرابع .

رجل من كبار شخصيات المدينة يحاصر الإمبراطور فى القسطنطينية بصورة أعجزت الإمبراطور عن مغادرتها ، فلما رأى المركيز « كو نراد » ذلك الأمر سأل الإمبراطور : كيف تأتّى لهذا الرجل أن يحاصره وكيف أنه لم يجرؤ هو ذاته على مغادرة المدينة ومحاربته ، فقال له الإمبراطور إنه ليس لدى شعبه من بأس أو معونة ، « هذا هو السبب الذى من أجله لا يرغب فى النهوض لقتاله .

٥٤ — فلما سمع المركيز هذا القول قال إنه مستعد لمعونته إن رغب فى هذه المعونة ، ورد عليه الإمبراطور إنه فى حاجة إليها ، وأنه سيظل شاكراً هذه اليد للمركيز الذى أخبر الإمبراطور أن يبعث فى طلب جميع لاتين المدنية ، وأنه سيصحبهم معه ويحارب بهم ليكونوا فى الطليعة على أن يتبعه الإمبراطور هو ورجاله ، ومن ثم بعث الإمبراطور فى استقدام جميع لاتين البلد الذين أمرهم — حين قدموا كلهم — بتسليح أنفسهم .

فلما ادّرعوا وجهز المركيز رجاله بالسلاح استصحب جميع اللاتين ورتب صفوفه على أحسن صورة ، كذلك كان الإمبراطور متسلحاً هو ورجاله ، فلم يكن من المركيز إلاّ أن تقدّم ومن ورائه الإمبراطور .

٥٥ — لكن ما كاد المركيز يصبح هو وجميع رجاله خارج الأبواب وما كاد براناس — الذى كان يحاصر الإمبراطور — يطالع مجىء المركيز الباسل لقتاله حتى تقدّم هو وكل من معه لصدّه ، وبينما كان كل من الفريقين يقترب من الآخر أعمل براناس المهماز فى خاصرتى جواده وتقدّم على رأس رجاله حتى أصبح على مرمى حجر وكرّ على جيش المركيز الذى

ما كاد يلمحه مقبلاً نحوه حتى انطلق بجواده لملاقاته وضربه فى عينه ضربة أردته صريعاً ، وراح هو ورجاله يضربون بسيوفهم ذات اليمين وذات الشمال وفتكوا بكثير من عدوّهم الذى ما كاد رجاله يبصرون مصرع سيدهم حتى تسللوا لواذاً وولوا هاربين .

٥٦ — فلما شاهد الإمبراطور الخائن — الذى كان قد أغلق الأبواب وراء المركيز — أن العدو لائذ بأذيال الفرار انطلق من المدينة على رأس جميع رجاله فى آثار الهاربين ، وأصاب المركيز والآخرون غنيمة كبرى من الجياد وغيرها ، وهكذا انتقم المركيز للإمبراطور من الرجل الذى كان يحاصره .

ولما تمت الغلبة [على براناس] عاد المنتصرون إلى القسطنطينية ودخلها الإمبراطور والمركيز ، فلما استقروا بها ألقوا سلاحهم جانبا وشكر الإمبراطور المركيز شكرا صادقاً على أنْ ثأر له من عدوّه ثأراً مبيناً ، وإذ ذاك سأله المركيز عن سبب إغلاقه الأبواب عليه ، فقال الإمبراطور « أتسأل عن ذلك الآن ؟ »

فأجابه المركيز « نعم بحق الله ! »

٥٧ — لم يمض وقت طويل على ذلك حتى دبر الإمبراطور والخونة مؤامرة كبرى ، وأعنى بها التآمر على قتل المركيز ، غير أن شيخاً كبيراً — كان على علم بالمؤامرة — أخذته الشفقة على المركيز فجاءه قائلا له : « سيدى المركيز ، أستحلفك باسم الرب أن ترحل عن هذه المدينة ، إذْ لو بقيت بها ثلاثة أيام من يومنا هذا فإن الإمبراطور ورجاله الخونة قد دبروا مؤامرة كبيرة للقبض عليك والفتك بك »

فلما سمع المركيز هذا النبأ حزن حزنا شديداً ، ثم بارح المدينة فى نفس تلك الليلة وجهز مركبيه للرحيل وأقلع بهما قبل أن يطلع اليوم الجديد ، وظل مسافراً دون توقف حتى بلغ مدينة صور .

اضطراب أحوال الصليبيين بالشام

٥٨ — وكانت تلك البلاد قد ضاعت قبل هذا الحادث ومات ملك بيت المقدس وضاعت الناحية كلها[1] ولم يبق منها سوى مدينتى صور وعسقلان وكان للملك الراحل ابنتان تزوجت كبراهما — التى آلت إليها مملكة بيت المقدس — من الفارس لورد جى دى لوزينيان دى بواتو ، وتزوجت الثانية لورد همفرى صاحب الشقيف .

٥٩ — وفى ذات يوم اجتمع كل بارونات الإقليم وكونت طرابلس والفرسان الداوية والاسبتارية ، وكان اجتماعهم بهيكل داود ببيت المقدس واتفقوا فيما بينهم على ضرورة العمل على فصل لورد « جى » عن زوجته بسبب أيلولة المملكة إليها ، ورغبوا فى تزويجها من رجل آخر يكون أصلح من « جى » لتولى الملك معها ، وتم لهم ما أرادوا ، ففرقوا بينهما، ولكنهم لم يستطيعوا الاتفاق فيما بينهم على الشخص الذى يزفونها إليه ، وانتهى بهم الأمر أخيراً إلى ترك المسألة للملكة ذاتها — زوجة جى — وناولوها التاج لتعطيه هى بدورها لمن تريده ملكا .

لذلك اجتمع كل البارونات والفرسان الداوية والاسبتارية مرة ثانية

(١) هذا التكرار فى العبارة راجع — كما ذكرنا — فى المقدمة إلى قلة خبرة كلارى اللغوية .

فى يوم آخر ، وحضر الاجتماع كونت طرابلس — وكان أحسن فارس بالمملكة — وقد ذهب به الظن إلى أن الملكة سوف تختاره بعلا لها وتسوق التاج إليه ، كما حضر أيضاً لورد « جى » الذى كان زوج الملكة من قبل .

فلما تكامل عقدهم أخذت الملكة التاج بين يديها وقلبت ناظريها فى الحاضرين حتى أبصرت الرجل الذى كان زوجها فتقدمت نحوه ووضعت التاج على مفرقه ، وهكذا أصبح لورد جى ملكا .

فلما رأى كونت طرابلس ما جرى اشتد به الحزن شدة حملته على أن يؤوب من لحظته إلى مقاطعته طرابلس والغضب يرمضه رمضاً عنيفاً .

جى فى أسر المسلمين

٦٠ — لم يمض وقت طويل على ذلك الحادث حتى أسر المسلمون [الملك] فى حرب شنها عليهم ، ودارت الدائرة فيها على جميع رجاله وضاعت البلاد باستثناء صيدا وعسقلان ، فلما رأى صلاح الدين أن البلاد قد أصبحت فى قبضة يده جاء إلى ملك بيت المقدس الذى كان فى أسره وقال له إنه سوف يطلق سراحه وسراح فريق كبير من رجاله إذا استطاع أن يحمل قومه على تسليمه عسقلان ، فأجابه الملك : « إمض بى إليها وسأحمل أهلها على تسليمها لك » .

فمضى به صلاح الدين إلى عسقلان ، حتى إذا صاروا بها تكلم الملك إلى من بالمدينة وطلب إليهم تسليمها لصلاح الدين ، لأنه راغب فى ذلك ، فراح أهلوها وسلموها إليه .

٦١ — فك صلاح الدين قيد الملك حين صارت المدينة فى يده ورحّله هو وجماعة من قومه ، فلما رأى « جى » أنه قد نجا من سجنه مضى بجميع من معه إلى صور .

بينما كان الملك يقوم بكل هذه الأشياء كان المركيز قد تغلب على جميع أهل صور وانضم إلى جانبه من كان بها من الجنويّة وسواهم من الناس ، وقطعوا له يمين الطاعة ، وأقسموا له على الآثار المقدسة أن يرجعوا إليه فى كل الأمور باعتباره مولاهم على أن يساعدهم فى الدفاع عن المدينة ، وإذ ذاك وجد المركيز فى صور غلاءً فاحشاً حتى لقد بيعت وزنة الحنطة بها بمائة بيزنته ، على حين أنها كانت لا تساوى أكثر من سستية ونصف فى أميين .

٦٢ — ولما جاء الملك إلى صور أخذ جنده فى النداء على من بها قائلين : « افتحوا الباب ، افتحوه ! وانظروا ها هو ذا الملك قد جاء » .

فنهاهم من بها عن دخولها ، فقال الملك : « كيف يكون ذلك ؟ ألست صاحب هذه البلاد وملكها ؟ »

فأجابه المركيز : « وحق الرب إنك لست ملكها ولا صاحبها ولن تستطيع دخولها لأنك لطخت كل شىء بالعار وأضعت البلاد قاطبة ، أضف إلى ذلك أن الغلاء شديد جداً هنا فلو دخلتها أنت ورجالك لهلكت المدينة كلها جوعاً ، وإنه لأهون وقعاً أن تموت أنت ورجالك لضآلة الخطب فيكم من أن نهلك نحن الذين بداخل المدينة وكذلك المدينة ذاتها » .

٦٣ — فلما رأى الملك أنه عاجز عن دخولها كرّ راجعاً هو وجميع

رجاله ويمموا شطر «عكا» ومضوا إلى حصن معين بها نزلوه وظلوا مقيمين به حتى جاء ملكا فرنسا وإنجلترا فوجداه بها .

وفى أثناء وجود المركيز فى صور وسط هذا الغلاء الفاحش يسّر الله له ولرجاله الراحة ، إذ جاءهم تاجر بسفينة من الغلال ، وقدم لهم الوزنة من الحنطة بعشر بيزنتات بعد أن كانت بمائة ، ففرح المركيز بذلك هو وجميع من كانوا بالمدينة وتوفر القمح بها وأصبح معروضاً للبيع .

٦٤ — على أن صلاح الدين مالبث أن جاء بعد برهة وجيزة وحاصر صور براً وبحراً فعجز القوم عن جلب شيء من الطعام أو سواه إلى المدينة ومكث السلطان صلاح الدين بها طويلاً حتى لقد عاد الغلاء إلى سابق شدته .

معالجة الغلاء

٦٥ — حين رأى المركيز شدة الغلاء بالمدينة وأن مسالك النجدة والراحة لمن بها قد سدّت عليهم بعث إلى جميع من فيها من الجنويّة وغيرهم وقال لهم : «أيها السادة ، إننا فى مأزق خطير إن لم يتداركنا الرب برحمته فقد استشرى الغلاء بالمدينة حتى ندر القوت وانعدمت الحبوب التى نستطيع أن نقيم بها أودنا وقد سدت منافذ البر والبحر دوننا ، فما ثم سبيل إلى نجدة تأتينا منها وأنى لمستحلفكم بالله أن يتقدم أحدكم بخطة ، إن تكن لديه خطة» .

وأخيراً تقدم إليه أحد الجنوية وقال له : «إن أمنت لى فإننى مقترح عليك خطة مفيدة» .

فسأله المركيز : « وماهى » ؟

فأجابه : « سأفضى إليك بخبرها ، إن لديناهنا بالمدينة بعض السفن والأغربة والصنادل وسواها من المراكب وسأخبرك بما أنا فاعله ، سوف أخرج بأربعة أغربة وأشحنها بخيرة من يكون هنا من الرجال ثم نركب البحر قبل انبلاج الصباح ،فيحسبنى من يرانى أننى أحاول الهرب فلا يكاد المسلمون يروننى حتى يبادروا إلى تسليح أنفسهم ولكنهم سيكونون فى عجلة كبرى للحاق بى ومطاردتى وإذذاك لا يسلحون أنفسهم وبدلا من ذلك سينطلقون فى إثرى وحينئذ تكونون أنتم قد ملأتم بقية السفن والصنادل والأغربة بأحسن من لديكم من المقاتلة ، فإذا رأيتم المسلمين قد نشروا قلاعهم وجدوا فى اقتفائى وأصبحوا بعيدين عنكم فأطلقوا كل سفنكم وأبحِروا فى أعقابهم ، وإذ ذاك أعود فنقاتلهم جميعاً ، وحينذاك يرسل الرب لنا المساعدة إن شاء » .

فأقرّ الجميع هذه الخطة وفعلوا كل مااقترحه [هذا الجنوىّ] عليهم .

٦٦ — فلما أوشك النهار على الطلوع كان هذا الرجل قد أعدّ أغربته الأربعة أتم إعداد وحشدها بالمقاتلة كما حشدت بقية المراكب الآخرى وأبحر قبل انبلاج الصباح ، وكانت الميناء البحرية التى تدخل السفن إليها وتخرج منها تقع داخل أسوار مدينة صور ، فتسلل وأخذ يخرج فى هدوء تام ، حتى إذا بعد بعض الشيء عن الميناء لمحه المسلمون فهبوا سراعاً يتعقبونه دون أن يسلحوا أنفسهم ، وأعدوا أغربتهم المائة وأخذوا فى مطاردته .

فلما بعدوا عن المدينة وطالت الشقة بينهم وبينها هب من بها للخروج

فى آثارهم ، وحينذاك استدار الجنوية إلى المسلمين ومن ثم التحم أهـــل صور بهؤلاء المسلمين المجردين من السلاح وقتلوا الكثيرين منهم وأنزلوا بهم الهزيمة ، ولم تكتب النجاة إلا لمركبين من مراكبهم المائة من الوقوع فى أيدى أهل صور ؛ وكان صلاح الدين يرقب ذلك كله وهو يبكى بكاء مرا ويجذب لحيته ويشد شعره حزنا على منظر رجاله وهم يمزقون إرباً تحت ناظريه دون أن يستطيع إلى نجدتهم سبيلا ، فلما فقد مراكبه قوّض معسكره ورحل عن المدينة التى قدرت لها النجاة على يد المركيز بهذه الحيلة .

وكان الملك جى مقيما فى هذه القلعة الصغيرة قرب عكا حيث وجده بها ملكا فرنسا وانجلترا فيما بعد .

٦٧ — لم ينقض وقت طويل على هذا الحادث حتى مات الملك جى وكذلك زوجته ، وآلت المملكة إلى شقيقتها زوجة همفرى صاحب شقيف تورون ، وإذ ذاك مضى الناس وأخذوا زوجة همفرى منه وزوجوها للمركيز فأصبح إذ ذاك ملكا ، وأنجبت زوجته له طفلة ، غير أن المركيز لقى حتفه على يد جماعة الحشاشين ، فأخذ القوم امرأته وزوجوها لكونت هنرى دى شمبانيا ثم شرعوا بعدئذ فى محاصرة عكا واستولوا عليها .

الزحف على القسطنطينية

٦٨ — أما وقد أخبرتك بنبأ الخطأ الذى من أجله كره المركيز دى مونتفرات إمبراطورَ القسطنطينية والذى من أجله أيضاً كان أكثر من سواه تحمساً لضرورة الذهاب إلى القسطنطينية ، فإننا نعود الآن إلى ما كنا فيه من قبل .

ذلك أنه بعد أن قال دوج البندقية للبارونات أنه قد توفرت لهم خير ذريعة يتذرعون بها فى الذهاب إلى أرض القسطنطينية وأنه يزكى هذا الذهاب كل التزكية وافق البارونات جميعهم على ذلك القول ، وإذ ذاك سئل الأساقفة عما إذا كان الذهاب إلى هناك يعد خطيئة فقال الأساقفة إن ذلك لن يكون خطيئة بل هو عمل كريم ، إذ يجب عليهم مساعدة رفيقهم الوريث الشرعى المخلوع عن العرش فى استرداد حقوقه وأخذ ثأره من أعدائه .

وحينئذ دعوا الشاب [ألكسيوس] أن يقسم على الآثار المقدسة بمحافظته على العهود التى اتفق وإياهم عليها من قبل .

٦٩ — وإذ ذاك وافق جميع الحجاج والبنادقة على المضى إلى هناك ، وأعدوا أسطولهم وشوانيهم وركبوا البحر حتى بلغوا ميناء اسمها أبيدوس [أوبق الأسد] التى كانت تبعد عن القسطنطينية مسافة مائة فرسخ ، وكانت هذه الميناء هى المكان الذى أقام فيه تروى الكبير عند مدخل مضيق سنت جورج ، ثم أقلعوا من هنا مرة ثانية وأبحروا حتى أصبحوا على مسافة فرسخ واحد من القسطنطينية ، فتلبثوا حتى تتجمع كل السفن ، فلما جاء الأسطول بأكمله وانضمت إليه السفن الأخرى أعدوا مراكبهم وزينوها ، حتى لقد كان مرآها أبدع منظر فى الدنيا وقعت عليه العين .

فلما رأى أهل القسطنطينية هذا الأسطول الحسن التجهيز أخذوا يحدقون فيه وقد اعترتهم الدهشة واعتلوا الأسوار والبيوت يطالعون هذه الأعجوبة كما أخذ من بالأسطول يملأون أبصارهم بضخامة حجم المدينة التى كانت

عظيمة الطول والاتساع وفاضت نفوسهم إعجاباً بها ، ثم تجاوزوها وأرسوا عند خلقدونية عبر مضيق سنت جورج .

٧٠ — فلما علم الإمبراطور [ألكسيوس الثالث] بخبر الصليبين بعث إليهم رسلاً كباراً من لدنه يستفسرونهم عما يريدون ويسألونهم عما جاء بهم ، وأنفذ إليهم كلمة يبدى فيها استعداده لإعطائهم عن طيب خاطر كل مايريدون من ذهبه وفضته إن كان هذا مقصدهم ، فلما سمع كبار الرجال هذا القول ردوا على الرسل أنهم لا يبغون شيئاً من ذهبه أو فضته ولكنهم يريدون منه أن يتخلى عن الإمبراطورية لأنه لم ينلها حقاً أو عن بيعة بويع بها ، وبعثوا إليه برسالة يقولون له فيها إن معهم الوريث الشرعى ألكسيوس بن الإمبراطور إسحق ، وحينذاك أجابهم المبعوثون إن الإمبراطور لن يستجيب لشىء مما يقولون ، ثم انفصلوا عنهم عائدين .

محاربة اليونان

٧١ — خاطب دوج البندقية بعدئذ البارونات قائلا لهم : « أيها السادة ، إنى أقترح عليكم أن نأخذ عشرة أغربة ونضع على واحد منها هذا الشاب ومعه بعض القوم ويممون وجهتهم شطر شاطىء القسطنطينية رافعين علم الأمان سائلين من بالمدينة عما إذا كانوا راغبين فى الاعتراف بسيادة هذا الشاب عليهم » .

فأجابه كبار الرجال إن هذا اقتراح وجيه ينبغى تحقيقه ، ومن ثم جهزوا تلك الأغربة العشرة وعليها الشاب [ألكسيوس] وكثير من

الرجال المسلمين الذين راحوا يعملون مجاديفهم حتى ضاقبوا أسوار المدينة ، ثم أبرزوا هذا الشاب واسمه ألكسيوس لأهلها وسألوهم إن كانوا يعتبرونه حاكمهم ، فرد عليهم أهل المدينة فى صراحة قائلين إنهم لا يعترفون به سيدا عليهم ولا يعرفون من أمره شيئاً ، فذكر لهم رفاق الشاب ممن كانوا بالأغربة أنه ابن اسحق الإمبراطور السابق ، فرد عليهم من بداخل المدينة مرة أخرى قائلين إنهم لا يعرفون شيئاً ماعنه ، وحينذاك عادوا إلى الجيش وقصوا ما كان من خبر القوم وجوابهم عليهم ، وإذ ذاك نودى فى الجيش بأجمعه بأن يحمل كل فرد سلاحه : صغيراً كان أم كبيراً ؛ فلما أصبحوا فى كامل سلاحهم شرعوا فى الاعتراف وتناول القربان لأنهم كانوا خائفين أشد الخوف من الزحف على القسطنطينية ، ورتبوا فرقهم وهيأوا سفنهم ومراكب حمولتهم وأغربتهم ، ودخل الفرسان مراكب النقل بجيادهم وأقلعوا ، ونفخوا الأبواق الفضية والنحاسية ، وكان منها مائتا زوج ، ودقت الطبول والنقارات التى كان منها الشيء الكثير .

فلما رأى أهل المدينة هذه البحرية الضخمة وهذا الأسطول العظيم وسمعوا أصوات الأبواق وقرع الطبول التى تحدث جلبة عظيمة سلحوا أنفسهم جميعاً ، واعتلوا بيوت المدينة وأسوارها ، وخيل إليهم كما لو كان البحر والأرض قد اضطربتا وأن اليم غشيته السفن ، وفى الوقت ذاته أمر الإمبرطور جميع قومه بالمضى إلى الساحل فى سلاحهم للدفاع عنه .

٧٢ — فلما رأى الصليبيون والبنادقة تقدم الإغريق مسلحين نحو الشاطىء لصدهم أخذوا يتشاورون فيما بينهم ،وظلوا هكذا حتى قال دوج البندقية إنه سيتقدم الجميع على رأس جميع قواته ويستولى على الشاطىء

بمعونة الرب ، ثم أخذ سفنه وأغربته ومراكب حمولته واتخذ مكانه فى المقدمة على رأس الجيش ، ثم جاءوا برماة السهام والنبال ووضعوهم أمام الصنادل لتطهير الشاطىء من الإغريق ، فلما تم ترتيبهم على هذه الصورة تقدموا نحو الساحل ، وإذ رأى اليونان أن الحجاج آخذون فى التقدم نحو الساحل غير مبالين بهم أو خائفين منهم ارتدوا على أعقابهم ولم يجرءوا على الصمود فى وجههم ، وهكذا اتخذ الأسطول الصليبى سبيله إلى الساحل ، وما كادت السفن تبلغ الشاطىء حتى وثب الفرسان من مراكب الحمولة معتلين ظهور جيادهم فقد كان لمراكب الحمولة هذه أبواب يمكن فتحها حيث ينصب منها جسر يستطيع الفرسان أن يخرجوا منه إلى اليابسة وهم راكبون خيولهم .

وإذ رسى الأسطول قرب الشاطىء استبد الحزن باليونان المسيحيين وهم يشاهدون الجميع قد خرجوا منه .

كان هولاء اليونان هم نفس الناس الذين جاءوا للدفاع عن الشاطىء والذين كانوا يتشدقون أمام الإمبراطور ذاكرين له أن هؤلاء اللاتين لن يستطيعوا الرسو أبداً طالما هم موجودون هناك ، فلما جاء الفرسان من مراكب الحمولة أخذوا فى مطاردة هؤلاء اليونان حتى بلغوا فى تعقبهم إياهم جسراً قريباً من رأس المدينة عليه بوابة اجتازها الإغريق فى هروبهم إلى القسطنطينية .

٧٣ — ولما عاد الفرسان من مطاردة هؤلاء الإغريق أخذوا يتكلمون فيما بينهم حتى قال البنادقة إن سفنهم لن تكون آمنة على نفسها إلا إذا كانت فى الميناء ، ومن ثم فقد عزموا على إرسائها بها ؛ وكانت ميناء

القسطنطينية آمنة كل الأمن لوجود سلسلة حديدية ضخمة قد ثبت أحد طرفيها فى المدينة والطرف الآخر عند برج غلاطية بعد عبورها الميناء ، وكان هذا البرج شديد الحصانة والمنعة لا يستطاع اقتحامه ، وقد جهز بالمدافعين أحسن جهاز .

نزل القوم عند نصيحة كبار الرجال فحاصروا البرج وتم لهم فى النهاية الاستيلاء عليه بالقوة ، وكانت هناك أغربة يونانية راسية على طول السلسلة وواصلة بين طرفيها لمساعدة الدفاع عنها ، ولما استولوا على البرج وحطموا السلسلة دخلت المراكب الميناء وأصبحوا آمنين عليها وأسروا بعض الأغربة والسفن اليونانية التى كانت واقفة بالميناء .

٧٤ — اجتمع كافة الحجاج والبنادقة حين أصبحت السفن وجميع المراكب الأخرى مطمئنة على وجودها ، داخل الميناء ، ثم راحوا يتشاورون فيما بينهم عما يتحتم عليهم اتباعه للإغارة على المدينة ، وانتهت مشاوراتهم بالاتفاق على أن يقوم الفرنسيون بمهاجمتها براً والبنادقة بحراً ، وقال دوج البندقية إنه مصدرٌ أمره بنصب ما لديه من الآلات والسلالم على السفن ليستطيعوا بها مهاجمة الأسوار .

وحينذاك تجهز الفرسان وكافة الحجاج الآخرين بسلاحهم ونهضوا لعبور جسر واقع على بعد مرحلتين تقريباً ، ولم يكن ثم طريق يمكن اجتيازه للوصول إلى القسطنطينية أقلّ من أربعة فراسخ إلا الطريق الواصل من هذا الجسر ؛ فلما بلغوه قدم الإغريق ليفسدوا عليهم أمر اجتيازهم إياه ، ولكن الحجاج أجلوهم فى النهاية عنه بقوة السلاح وعبروه ،

فلما وصلوا إلى المدينة نصب كبار رجالات الحملة دهاليزهم أمام قصر بلاشرناى التابع للإمبراطور والواقع عند رأس المدينة .

٧٥ — كان عند دوج البندقية آلات عجيبة الصنع بالغة الدقة لأنه جعلها تأخذ صوارى تحمل قلاع السفن طولها مائة وثمانون قدما أو أكثر ، وربطها إلى بعضها ربطاً محكماً وشدها إلى الصوارى بأمراس قوية ، وأمرهم بإقامة جسور متينة فوقها من خشب الشربين ، ونصب أوتاداً على طول امتداد الحبال ، وكانت الجسور شديدة الاتساع حتى لقد كان فى استطاعة ثلاثة فرسان أن يسيروا عليها جنباً إلى جنب ، وعمل الدوج على وقاية الجسور خير وقاية وغطاها بالجلد المدبوغ والكتان من كل الجوانب ، وبذلك لا يخاف من يصعدها للهجوم من منازعات السهام والأقواس ، ومدت الجسور فيما وراء السفن ، حتى لقد كان ما بين الجسر والأرض مائتان وأربعون قدما أو أزيد ؛ ووضع على كل مركب من مراكب الحمولة منجنيقاً إذا رمى بلغ مرماه الأسوار والمدينة .

ولما جهز البنادقة سفنهم على الصورة التى رويتها لك قام الحجاج من ناحيتهم — وكانوا يهاجمون المدينة برا — بوضع مقاليعهم ومجانيقهم بصورة تجعل رمياتها قادرة على الوصول إلى قصر الإمبراطور ، وكان من بداخل المدينة يرمون أيضاً فتبلغ رمياتهم معسكر الحجاج .

ترتيب القوات المهاجمة

٧٦ — وحينذاك تباحث الحجاج والصليبيون معاً واتفقوا على أن يكون الغد موعداً لمهاجمة المدينة برا وبحراً فى وقت واحد ، فلما جاء

صباحه كان البنادقة قد أخذوا للأمر أهبته وأعدّوا سفنهم وأخذوا فى الدنوّ من الأسوار ما وسعهم الجهد استعداداً للهجوم وكذلك فعل الحجاج الذين وقفت قواتهم فى الجانب الآخر فأبصروا «ألكسيوس» إمبراطور القسطنطينية يفرّ من المدينة عبر بوّابة يسمونها بالبوابة الرومانية وفرّ معه جميع رجاله وهم فى كامل سلاحهم ، وهناك رتب قواته وجعلها سبع عشرة فئة تضم قرابة مائة ألف رجل على جيادهم ، ثم بعث معظم هذه الفئات السبع عشرة للإحاطة بمعسكر الفرنسيين واستبقى البقية الباقية منهم معه ، وأجبر جميع رجالة المدينة القادرين على حمل السلاح على الخروج وفرّقهم على جميع الأسوار جاعلاً إياهم بينها وبين معسكر الفرنسيين ؛ فلما رأى الفرنسيون أنفسهم وقد طوّقتهم هذه الكتائب بلغ الغم بهم غايته واشتدت كربتهم ، ثم أخذوا يهيئون فرقهم التى بلغت سبعاً فقط ، قوامها كلها سبعمائة فارس ، إذ لم يكن عندهم أكثر من هذا العدد ، ولم يكن بين هؤلاء السبعمائة سوى خمسين فقط من المشاة .

فلما رتبوا قوتهم على هذه الصورة طلب «كونت فلاندر» أن تكون له الفرق الأولى فأجيب إلى طلبه ، وتولى «كونت سنت بول» وسيدى «بطرس الداميانى» قيادة الكتيبة ، وتولى «لورد هنرى» أخو «كونت فلاندر» قيادة الفئة الثانية والألمان معاً .

ثم اتفقوا على أن يسير الجند المشاة وراء الكتائب الممتطية الجياد ، وهكذا كان وراء كل كوكبة من الخيالة ثلاث فرق أو أربع ، وخلف كل واحدة من هذه الفرق الرجال الذين من موطنها .

٧٧ — ولما تم اختيار الفرق الثلاث التى وقع عليها الاتفاق لقتال

الإمبراطور اجتازوا الفرق الأربع الأخرى التي عهد إليها بحراسة المعسكر فكان المركيز [بونيفاس دى مونتفرات] — وهو قائد عام الجيش — على المؤخرة حيث وكلت إليه حراسة المعسكر من الخلف ، وكان على الثانية « كونت لويس » وتألفت الثالثة من أهل « شمبانيا » ، والرابعة من البرجنديين ، وكان للمركيز قيادة هذه الكتائب الأربع كلها .

٧٨ — ثم أخذوا جميع الصبية القائمين بالعناية بالخيول والطباخين القادرين على حمل السلاح وجهزوهم بالألحفة وأقمشة السرج والأوانى النحاسية والصولجانات وأيدى الهون ، وكان منظرهم من أقبح المناظر وأبغضها إلى العين حتى إن جمهور مشاة الإمبراطور الواقفين أمام الأسوار خافوا منهم أشد الخوف واستولى عليهم الفزع حين أبصروهم .

قامت الفرق الأربع التى ذكرتها لك حالا بحراسة المعسكر خوفاً من أن تتحرك كتائب الإمبراطور التى تحيط بها فتقتحم المعسكر والخيم وتنزل بهما المضرة فوضعوا السوّاس والطباخين فى الناحية المتجهة شطر المدينة قبالة عسكر الإمبراطور المشاة الذين كانوا واقفين على طول الأسوار .

ولما رأى مشاة الإمبراطور رجالنا الشعبيين منظمين خير تنظيم تملكهم الخوف المقيم واستبد بهم الفزع الشديد منهم فلم يجرءوا على التحرك أو التقدم نحوهم ، ومن ثم اطمأن معسكرنا من أى خطر يأتيه من ذلك الجانب .

٧٩ — ثم صدر الأمر أن يقوم كونت فلاندر وكونت دى سنت

بول ولوردهنرى الذين كانوا على قيادة الفرق الثلاث بمحاربة الإمبراطور ؛ أما الفرق الأربع الأخرى فقد أمرت ألا تبرح مكانها مهما كانت حاجة الآخرين إليها ، اللهم إلا إذا رأت أن وقوفها حيث هى سيؤدى إلى هلاكها ، وقد صدر إليها هذا الأمر خوفاً من أن يحال بينها وبين العودة ، أو أن تهاجمها الكتائب المحيطة بالمعسكر .

٨٠ — وفى نفس الوقت بينما كان الفرنسيون يصطفون للقتال على هذه الصورة لم ينس البنادقة دورهم ، وإذ كانوا على البحر فقد اقتربوا بسفنهم كل الاقتراب من أسوار المدينة حتى لقد استطاعوا اعتلاءها بواسطة السلالم والجسور التى أقاموها على المراكب وراحوا يرمون ويقذفون القذائف بواسطة مجانيقهم ، وهجموا أعنف هجوم حتى انتهى الأمر بهم أخيراً إلى إشعال النيران فى المدينة التى أتى الحريق على جزء منها يعادل فى حجمه مدينة « أراس » ، لكنهم مع ذلك لم يجرءوا على السير فى المدينة أو التقدم بها ، لأنهم كانوا شرذمة ضئيلة ولا يستطيعون المقاومة ، ومن ثم فقد انسحبوا مرة أخرى إلى سفنهم .

ومن ناحية أخرى فإن كبار الرجال الذين كان عليهم المحاربة إلى جانب الإمبراطور رتبوا أن يختار فى كل موقعة اثنان من أحكم الرجال وأعقلهم وأن تنفذ أوامرهما مهما كانت ، فإذا قالوا « همزاً » كان الواجب أن يهمزوا ، وإن قالوا « خبباً » فعلى البقية الطاعة .

٨١ — وكان كونت فلاندر — الذى على رأس الطليعة — قد ركب مسرعاً لمهاجمة الإمبراطور الذى كان على بعد ربع فرسخ منه والذى أمر كتائبه أن تتقدم لملاقاة كونت فلاندر .

أما «كونت دى سنت بول» ولورد بطرس الداميانى اللذان كانا على رأس الفرقة التالية فقد كانا وراءه بقليل . ومن بعدهما هنرى دى هينولت والألمان الذين كانوا يؤلفون الكتيبة الثالثة ، ولم يكن ثم حصان من الأحصنة إلا وهو مغطى بدرع أو قماش حريرى فوق جميع الأغطية الأخرى .

وكان وراء كل فرقة من الفرق وفى أذيال الجياد ثلاث أو أربع أو خمس فرق من العسكر المشاة ، وقد ركبوا فى صف مستقيم يجاور كل منهم الآخر ، ولم يكن أحدهم ليجرؤ على التقدم على سواه .

أما الإمبراطور فقد تقدم لصد رجالنا وهو فى الفرق التسع كلها ، وفى كل منها مالا يقل عن ثلاثة آلاف فارس ، بل كان فى بعضها أربعة آلاف وفى البعض الآخر خمسة آلاف .

٨٢ — ولما تقدم كونت فلاندر من المعسكر مسافة رميتين من سهم قال له مشيراه :

« أيها الكونت : لا يحسن بك أن توغل فى البعد كثيراً عن معسكرك لقتال الإمبراطور ، إذ لن يعود فى قدرة القائمين بحماية المعسكر نجدتك إن أنت بعدت كثيراً عن معسكرك واحتجت إلى النجدة ، فهلا استجبت لنصحنا وعدت إلى متاريسك وأقمت فى انتظار الإمبراطور آمناً على نفسك إن أراد قتالك ؟ »

ومن ثم انكفأ كونت فلاندر عائداً إلى متاريسه نزولا على تلك النصيحة ، كما رجع أيضاً فريق سيدى هنرى ؛ أما كونت سنت بول

وبطرس الداميانى فقد رفضا الرجوع ولكنهما توقفا فى وسط الميدان بجميع قواتهما .

٨٣ — ولما رأى فريق كونت سنت بول وبطرس الداميانى ارتداد كونت فلاندر قال بعضهم لبعض إن الكونت ارتكب عاراً كبيراً بارتداده وهو الذى تولى قيادة الطليعة ثم قالوا : « أيها السادة ، أيها السادة ، إن كونت فلاندر يتقهقر وهو بذلك يتخلى لكم عن مقدمة الجيش فلنأخذها باسم الله ! » .

ومن ثم اتفق البارونات فيما بينهم على أن يتولوا قيادة الطليعة .

٨٤ — وحين رأى كونت فلاندر امتناع سنت بول وكونت أميان عن الرجوع بعث إليهما بكلمة مع رسول من لدنه يحثهما فيها على العودة ، فرد عليه سيدى بطرس الداميانى قائلا : إنه لن يفعل ذلك ، فأنفذ إليه كونت فلاندر مرة أخرى بكلمة مع رسولين يلتمس منه باسم الرب ألا يجللهم بذلك العار ، بل يعود كما عاد هو نزولا على النصيحة التى أسديت إليه ، فرد عليه كونت سنت بول وبطرس لورد أميان بالرفض البات .

٨٥ — ثم جاء سيدى بطرس لورد أميان وسيدى أستاس دى كانتلو Canteleux — وكانا قائدى هذه الكتيبة — وقالا : « أيها السادة ، إركبوا الآن وتقدموا باسم الله فالكل مسرع » ، وأخذا فى التقدم مسرعين ، وحينذاك شرع كل من بقى من الجيش فى الصياح وراءهما : « انظروا ، انظروا ، إن كونت سنت بول وبطرس الداميانى يقصدان مهاجمة الإمبراطور » ، ثم أخذوا فى الانسحاب والصياح قائلين : « أيها السيد

الرب ، احفظهما اليوم هما وجميع من معهما ، انظروا لقد أخذا الطليعة التي كانت قيادتها لكونت فلاندر ، فردهم أيها السيد الرب سالمين » .

٨٦ — وتطلعت سيدات القصر وعذاراه من النوافذ ، كما اعتلت بقية أهل المدينة من النساء والبنات أسوار البلد يرقبن المعركة الدائرة رحاها أمامهن ، بينما وقف الإمبراطور فى الجانب الآخر ، وكن يقلن بعضهن لبعض : إن رجالنا أشبه بالملائكة وإنهم شديدو الجمال لبداعة أسلحتهم وحسن تجهيز جيادهم .

٨٧ — ولما رأى فرسان فرقة كونت فلاندر إصرار كونت سنت بول وبطرس الداميانى على عدم العودة مهما كانت الأمور جاءوا إلى مولاهم الكونت وقالوا له : « يا مولانا ، لقد جئت شيئاً إدًّا لعدم تقدمك ، وإنا نعلمك إننا لن نعد أنفسنا مرتبطين بك إن لم تبادر إلى الزحف الآن » .

فلما سمع الكونت هذا القول أعمل المهماز فى خاصرتى جواده واقتفى أثره الباقون وتقدموا حتى بلغوا كتيبة كونت سنت بول وبطرس الداميانى ، فلما أدركوهم ساروا جميعاً جبهة واحدة ومن خلفهم كتيبة لورد هنرى .

بذلك أصبحت فرق الإمبراطور وفرقنا قريبة بعضها من بعض كل القرب ، حتى إن رماة سهام الإمبراطور كانوا يرمون وهم فى وسط رجالنا وكذلك رماة سهامنا كانوا يرمون وهم فى وسط رجال الإمبراطور .

موقف الإمبراطور من القتال

٨٨ — وكانت هناك رابية صغيرة تفصل بين الإمبراطور وبين فرقنا ، فأخذت كتائب الإمبراطور فى تسلقها من ناحيتها وكذلك تسلقتها كتائبنا من ناحيتها هى الأخرى أيضاً ، حتى إذا بلغ رجالنا قمة الرابية ورآهم الإمبراطور توقف هو وجميع رجاله ، وبلغ بهم الفزع غايته واشتد بهم الغم لرؤيتهم كتائبنا وقد زحفت عليهم وجهاً لوجه ، فأوقع فى يدهم ولم يعودوا يدرون ما يفعلون ، وبينما هم وقوف تغشاهم الحيرة قامت بقية كتائب الإمبراطور — التى كانت قد أرسلت للإحداق بمعسكر الفرنسيين — بالانسحاب من مكانها وانضمت جميعها إلى الإمبراطور فى الوادى .

٨٩ — وإذ رأى الفرنسيون تجمع كل قوات الإمبراطور توقفوا عند قمة الرابية متعجبين مما سيفعله الإمبراطور ، وأرسل كونتات الفرق الثلاث وكبار رجالاتها الرسائل بعضهم إلى بعض للتشاور فيما ينبغى عليهم عمله : أيتقدمون لمقاتلة جيش الإمبراطور أم يمتنعون عن ذلك ؟ فقر رأيهم على عدم التقدم لأنهم كانوا جد بعيدين عن المعسكر ولأنهم إذا هاجموا الإمبراطور حيث هو عجز القائمون بحراسة المعسكر عن رؤيتهم أو مساعدتهم إن كانت ثمت حاجة لمساعدة ؛ أضف إلى ذلك أنه كان بينهم وبين الإمبراطور قناة كبيرة هى عبارة عن ماسورة ضخمة يجرى فيها الماء الواصل إلى القسطنطينية ، فإن اضطرتهم الظروف لاجتيازها تكبدوا خسارة جانب كبير من قواتهم ، ومن أجل هذا صمموا على عدم الزحف .

وبينما كان الفرنسيون يتحدثون فى هذه الأمور فيما بينهم إذا بهم يرون الإمبراطور قد انسحب إلى القسطنطينية التى ما كاد يعود إليها حتى سلقته سيداتها وأوانسها بألسنة من النقد حداد ، وأجمع الكل على شدة لومه لعدم محاربته فئة قليلة كالفرنسيين بينا هو فى هذه القوة الضخمة .

٩٠ — حين ارتد الإمبراطور على هذه الصورة عاد الحجاج إلى خيمهم وألقوا سلاحهم جانباً ، وإذ ذاك جاءهم البنادقة فى سفنهم وصنادلهم يسألونهم عن جلية الأمر قائلين لهم : « الواقع أننا سمعنا أنكم كنتم تحاربون اليونان وكنا نحن فى أشد الخوف عليكم لذلك جئنا لمساعدتكم ».

فأجابهم الفرنسيون : « لقد أدّينا واجبنا والشكر للرب لأننا نهضنا لمحاربة الإمبراطور لكنه لم يجرؤ على قتالنا » . ثم سألهم الفرنسيون بدورهم عن أخبارهم فقالوا لهم : « الواقع أننا هاجمنا هجوماً عنيفاً واقتحمنا المدينة من فوق أسوارها وأضرمنا النيران التى أتت على جانب كبير منها » .

وبينما كان الفرنسيون والبنادقة يتحادثون فيما بينهم علت فى أرجاء المدينة ضجة هائلة لمطالبة أهلها الإمبراطور بضرورة عمل ما فى جهده لتخليصهم من الفرنسيين الذين ضربوا عليهم الحصار ، وهدّدوه — إن هو أحجم عن قتالهم — أن يبعثوا فى طلب الشاب الذى جاء به الفرنسيون وينصّبوه إمبراطوراً عليهم ويولوه أمورهم .

فلما سمع الإمبراطور ماقالوه وعدهم بأنه سوف يقاتل الفرنسيين فى الغد ، لكن ما كاد الليل أن يوشك على الانتصاف حتى فرّ من المدينة مستصحباً معه من استطاع استصحابه من الناس .

٩١ — وإذ طلع الصباح وعلم أهل المدينة بنبأ هروب الإمبراطور لم يجدوا أمامهم من عمل إلا الذهاب إلى أبوابها وفتحها ، ثم جاءوا إلى معسكر الفرنسيين فى البحث عن « ألكسيوس بن سحق » وطلبه فأنبأهم القوم أنهم واجدوه فى فسطاط المركيز ، فلما جاءوه ألفوه حاضراً فأكرمه أصدقاؤه غاية الإكرام وفرحوا له ، وشكروا البارونات شكراً صادقاً وقالوا إن الذين فعلوا هذا الشىء قد أحسنوا كل الإحسان ، وأنهم أدوا عملا جليلا من أعمال التشريف ، وذكروا أن الإمبراطور قد فر ، وأنه يجب على الصليبيين أن يدخلوا المدينة والقصور كما لو كانت كلها ملكا لهم .

٩٢ — وإذ ذاك اجتمع جميع كبار بارونات الجيش وأخذوا « ألكسيوس بن اسحق » وساروا به إلى القصر فى فرح عظيم وابتهاج جم ، حتى إذا بلغوه أخرجوا أباه إسحق وزوجته من السجن ، وكان إسحق هذا هو الشخص الذى سجنه أخوه الذى أصبح إمبراطوراً بعده .

وحين أصبح إسحق خارج الحبس فرح بولده فرحاً عظيماً وراح يعانقه ويقبله ، وأطنب فى شكر البارونات الذين كانوا موجودين إذ ذاك وقال إن الفضل فى خروجه من السجن يرجع إلى الله أولا ثم إليهم ثانياً ، وحينئذ جىء بكرسيين من الذهب جلس إسحق على أحدهما وجلس ابنه «ألكسيوس» إلى جواره على الثانى ولكنهم أعطوا الإمبراطور اسحق كرسى العرش وقالوا له :

« يامولانا ، يوجد هنا فى السجن رجل عظيم اسمه « مرزفلس » ، ظل رهين الحبس سبع سنوات كاملة ، فإن تكرمت مننت عليه بإطلاق سراحه » ، وهكذا أخرج مرزفلس من الحبس واصطنعه الإمبراطور

كبير نوابه . إلا أن الإمبراطور لقى منه أسوأ شر على كرمه هذا كما سنقص عليك فيما بعد .

سلطان قونية والصليبيون

٩٣ — بعد أن أنجز الفرنسيون كل هذه الأشياء حدث أن سمع سلطان قونيه بما فعله الفرنسيون ، ومن ثم جاء لمحادثتهم حين كانوا لا يزالون مقيمين خارج القسطنطينية وقال لهم : « أيها السادة ، لقد فعلتم فى الواقع عملا جليلا من أعمال البطولة والبسالة حين تمكنتم من فتح مكان شديد المنعة كالقسطنطينية التى هى عاصمة الدنيا ، وكذلك حين أجلستم على العرش صاحبه الشرعى وريث القسطنطينية وتوّجتموه إمبراطوراً » .

وهم يقولون فى تلك البلاد إن القسطنطينية عاصمة الدنيا .

ثم تابع سلطان قونية كلامه قائلا « أيها السادة : إن لدى مسألة أريد ان أسألكم إياها ، ذلك أن لى أخاً أصغر منى سناً توسل بالخيانة حتى سلبنى بلادى وإمارتى قونية التى كنت أنا حاكمها وكنت صاحبها الشرعى ، فإن عاونتمونى فى استردادها واستطعت العودة إلى تملك إمارتى بمساعدتكم وصلتكم بالكثير من ثروتى وعمّدت نفسى مسيحياً وكذلك جميع من حولى » .

فأجابه البارونات إنهم سيتدبرون الأمر فيما بينهم ، ثم بعثوا بكلمة إلى دوج البندقية وإلى المركيز وجميع كبار البارونات وعقدوا اجتماعاً كبيراً ، وأخيراً انعقد إجماعهم على ألا يلبوا طلب السلطان الذى قالوا له حين خروجهم من اجتماعهم هذا إنهم لا يستطيعون إجابته إلى ما سألهم إياه ،

إذ لازالوا فى انتظار مكافأة الإمبراطور لهم ، وأنه من الخطر عليهم أن يغادروا القسطنطينية حيث لا زالت الأمور فيها على هذا المنوال مما لايمكنهم من تركها ، فاشتد غضب السلطان حين سماعه هـــذا القول وانصرف عنهم .

٩٤ — ولما أخذ البارونات ألكسيوس إلى القصر سألوا عما إذا كانت أخت ملك فرنسا التى كانت تسمى بالإمبراطورة الفرنسية لا تزال على قيد الحياة ، فكان الرد بالإيجاب وأنها قد تزوّجت من رجل من كبار رجالات المدينة إسمه براناس Branas وتعيش فى قصر قريب من هناك ، فتوجه البارونات إليها لرؤيتها وتحيتها مبدين لها آيات الطاعة ، لكنها لقيتهم فى برود شديد ، وكانت غاضبة عليهم أشد الغضب ، لأنهم جاءوا وتوّجوا هذا المسمى بألكسيوس ، كما كانت عازفة عن التحدث معهم فكان الواسطة بينها وبينهم مترجم ينوب فى الكلام عنها ، وقال المترجم إنها لا تعرف أحداً من الفرنسيين على الإطلاق ، ولكن كونت لويس — وكان ابن عمها — عرفها بنفسه .

ملك النوبة فى القسطنطينية

٩٥ — وحدث بعـــد ذلك أن ذهب البارونات ذات يوم للهو إلى القصر لرؤية إسحق وابنه الإمبراطور ، وبينما كان البارونات مجتمعين فى القصر جاء أحد الملوك وكان أسود البشرة قد وشم وسط جبهته بصليب بالحديد المحمى ، وكان هذا الملك يعيش فى دير غنى جداً بالمدينة كان الإمبراطور السابق ألكسيوس قد أمر بإنزاله فيه وأباح له أن يكون

أسيد هذا الدير ومالكه طالما راد الإقامة به ، فلما رآه الإمبراطور قادماً عليه خف لاستقباله ورحب به كل الترحيب ، ثم التفت الإمبراطور إلى البارونات وسألهم : « أتعرفون من يكون هذا الرجل ؟ » فأجابه البارونات : « كلا يامولانا » فقال الإمبراطور : « إنه ملك النوبة وقد جاء إلى هذه المدينة للحج » .

فجاءوا بمترجم يترجم بينه وبينهم ، فسألوه أين تقع بلاده ، فرد على المترجم بلسانه : إنها تبعد عن القدس مسيرة مائة يوم وأنه غادرها إلى بيت المقدس قصد الحج ، وذكر أنه كان بصحبته أثناء خروجه من بلده ستون من بنى جلدته لم يبق منهم على قيد الحياة — حين وصوله القدس — غير عشرة ، حتى إذا جاء إلى القسطنطينية لم يكن قد بقى منهم على قيد الحياة سوى اثنين فقط ، وقال إنه يريد الذهاب إلى رومة للحج ويعرج منها إلى مزار القديس جيمس ثم يعود إلى بيت المقدس إن كان فى الأجل بقية ويقيم به حتى يوافيه حينه .

٩٦ — وذكر هذا الملك أيضاً أن جميع أهل بلده نصارى ، إذا ولد لأحدهم طفل وعمد جاءوا بقضيب من الحديد محمىٍّ فى النار ورسموا فى وسط جبهته صليباً كالذى يرونه الآن ؛ فأخذ البارونات يحدجون فى هذا الملك بعيون ملؤها الدهشة والعجب .

المطالبة بالأموال

٩٧ — بعد أن فرغ البارونات من تتويج ألكسيوس امبراطوراً كما ذكرت لك اتفقوا على أن يقيم معه فى القصر بطرس دى براشو

Bracheux هو ورجاله ، ثم اتفق البارونات بعدئذ على أمر إقامتهم ولم يجرءوا أبداً على السكنى فى المدينة خوفا من الإغريق الخونة ، ولكنهم عسكروا بدلا من ذلك عبر الميناء فوق برج غلاطية ، ووجدوا لهم جميعاً مساكن فى تلك الناحية فى بعض بيوت خاصة ، وسحبوا بحريتهم إلى الشاطىء فى مواجهتهم ، وكانوا يذهبون إلى المدينة متى أرادوا ، فإذا رغبوا فى المضىّ إليها بحراً مروا على الصنادل ، وإن شاءوا الذهاب على ظهور الخيل عبروا الجسر .

٩٨ — ولما استقر المقام اتفق الفرنسيون والبنادقة فيما بينهم على هدم ثلاثمائة قدم من أسوار المدينة تخوفاً من انقلاب من بها عليهم .

٩٩ — واجتمع جميع كبار البارونات فى ذات يوم بقصر الإمبراطور وطلبوا منه أجرهم ، فأجابهم أنه لابد فاعل ذلك ولكنه يريد أولا أن يتوّج ، ومن ثم اختاروا يوما معيناً لتتويجه ، وتم التتويج فى ذلك اليوم المحدّد فى احتفال رسمى رائع ونصبوه إمبراطوراً برضاء أبيه الذى قبل ذلك عن طيب خاطر ؛ ولما فرغ البارونات من تتويجه عادوا يطالبونه بأجرهم فقال إنه سعيد بأن يدفع لهم كل مايستطيع دفعه ، وفعلا نقدهم مائة ألف مارك أخذ البنادقة نصفها إذ كان المتفق عليه أن يأخذوا نصف المغانم .

أما الخمسون ألف مارك الباقية ، فقد دفع الصليبيون منها للبنادقة مبلغ ستة وثلاثين ألف مارك كانت ديناً لايزال فى عنق الفرنسيين للبنادقة أجر نقلهم إياهم بحراً .

وأما الأربعة عشر ألف مارك المتبقية بعد ذلك للحجاج فقد ردوا ماعليهم من دين لمن أقرضوهم أجر السفن .

١٠٠ — بعث الإمبرطور بعدئذ وراء البارونات وقال لهم إنه لا يملك غير القسطنطينية وأنها فى حدذاتها لا تساوى كثيراً عنده ، لأن عمه كان يسيطر على جميع المدن والقلاع الأخرى التى كان يجب أن تكون فى يده هو ذاته ، لذلك سألهم أن يساعدوه فى فتح بعض البلاد القريبة منه وإذ ذاك يكون مستعداً لإعطائهم من ثروته أكثر مما قرره لهم ، فسرهم ذلك العرض كل السرور وقالوا من شاء الربح فليفعل ؛ وحينذاك ذهب مع ألكسيوس أكثر من نصف الجيش ، وأقامت البقية فى القسطنطينية لتسلم الأجر ، وتخلف إسحق ليدفع للبارونات بهذا استحقاقاتهم ، وهكذا خرج ألكسيوس بكل جيشه وفتح قرابة عشرين مدينة ونيفاً وأربعين حصناً ، أما عمه ألكسيوس الإمبرطور الآخر - فقد فر أمامه وظل الفرنسيون بعيدين مدة ثلاثة أشهر مع ألكسيوس .

وبينما كان ألكسيوس قائماً بهذا الغزو أعاد أهل القسطنطينية تجديد سورها وزادوه مناعة وارتفاعاً عما كان عليه من قبل إذكان الفرنسيون حين احتلالهم المدينة قد هدموا ثلاثمائة قدم منه وسووها بالأرض خوفاً من انقلاب الإغريق عليهم .

مماطلة الإمبراطور فى الدفع

١٠١ — أما البارونات لذين كانوا قدتخلفوا بالمدنيةلتسلم الأموال فقد رأوا أن إسحق يأبى دفع شيء ما إليهم ، ومن ثم بعثوا إلى بقية البارونات الذين

خرجوا مع ألكسيوس يطلبون إليهم العودة لأن إسحاق لم يدفع لهم الأجر ، ويسألونهم أن تكون عودتهم قبل عيد جميع القديسين . فلما سمع البارونات بهذا الخبر ذكروا للإمبراطور أنهم قافلون إلى القسطنطينية ، فلما عرف ذلك النبأ منهم قال إنه سوف يصحبهم فى قفولهم إن رجعوا لعدم استطاعته الاطمئنان إلى رجاله الإغريق . وهكذا عادوا إلى القسطنطينية فدخل الإمبراطور قصره ومضى الحجاج إلى معسكراتهم عبر الميناء .

ثم اجتمع الكونتات وكبار الرجال والدوج والإمبراطور الذى طالبه الفرنسيون برواتبهم فأجابهم أنه استنفذ كثيراً من الأموال فى استرداد مدينته ورجاله وأنه أصبح خالى الوفاض ولم يتبق معه شىء يدفعه لهم ، ولكنه — إن أمهلوه برهة قصيرة من الزمن — سوف يتخذ من الإجراءات مايمكنه من دفع مالهم إليهم ، فلبوا عرضه ، ولكنه ظلّ رغم هذا مقيما على عدم دفع شىء للبارونات الذين عاودوا مطالبته بأجرهم فسألهم إمهاله مرة أخرى فأمهلوه ثانية .

١٠٢ — حينذاك قدم عليه أتباعه وجماعته وكذلك مرزفلس الذى كان قد أطلقه من سجنه وقالوا له : « يامولانا لقد دفعت لهم حتى الآن قدراً كبيراً من المال فأمسك عنهم ، فإن ضخامة ما دفعته حملتك على رهن كل شىء ، فمرهم الآن بالرحيل وأخرجهم من أرضك » .

فأصغى ألكسيوس إلى نصيحتهم هذه وأصبح غير راغب فى دفع شىء ما أكثر مما وصلهم به من قبل .

١٠٣ — ولما انتهت المهلة التى أمهلوه إياها ورأى الفرنسيون أن

الإمبراطور لايعتزم دفع شيء لهم عقد جميع الكونتات وكبار رجالات الجيش فيما بينهم اجتماعاً ومضوا بعده إلى الإمبراطور في قصره سائلين إياه ثانية دفع أجورهم ، فأجابهم بأنه لا يستطيع نقدهم شيئاً ما ، فكان ردّ البارونات عليه أنه إن امتنع عن سداد مالهم عنده فإنهم سيستولون على جزء من ممتلكاته يفي بأجرهم .

١٠٤ — غادر البارونات القصر بعد أن قالوا له هذا الكلام وعادوا إلى معسكراتهم، وحينذاك تدبروا فيما بينهم الخطة التي ينبغي عليهم اتخاذها وانتهى تدبيرهم إلى إرسال فارسين إلى الإمبراطور يطلبان منه مرة أخرى أن يبعث إليهم بأجورهم ، فكان ردّه الذي حمّله الرسولين أنه لن يدفع لهم شيئاً مابعد أن دفع لهم جانباً كبيراً جداً وأنه لايخاف منهم قلامة ظفر ، وزاد على ذلك بأن بعث إليهم آمراً إياهم بالرحيل والجلاء عن أرضه وأفهمهم جيداً أنهم إن لم يقبلوا ذلك سريعاً فإنهم ملاقون منه شراً .

١٠٥ — عند ذاك عاد الرسولان وأطلعا البارونات على جواب الإمبراطور ، فلما وقفوا على رده تشاوروا فيما بينهم فيما يفعلون حتى قام في النهاية دوج البندقية وقال إنه ماضٍ إليه للتحدث معه .

ومن ثم بعث إليه رسالة مع رسول من قبله يطلب منه القدوم إليه والتحدث معه عند الميناء ، فجاء الإمبراطور راكباً فرساً ، وكان الدوج قد شحن أربعة أغربة دخل هو واحدة منها وترك الثلاثة الأخرى تقوم بحراسته ، فلما جاء الدوج إلى الساحل شاهد الإمبراطور الذي كان قد جاء على ظهر جواده وتكلم معه فقال له : « ياألكسيوس ، ما الذي

تعنيه بما قلت ؟ هلا فكرت كيف أنقذناك من الشقاء العظيم ، وكيف صيرناك سيداً ومولىً ، وتوجناك إمبراطوراً فهلا رعيت عهدك معنا ؟ وهلاّ اعتزمت تنفيذ شيء منه أكثر مما مضى ؟ »

فقال الإمبراطور : « كلا ! إنى لن أفعل شيئاً أكثر مما فعلت »

فقال له الدوج « أتقول كلا أيها الغلام الشقى ؟ لقد كنا نحن الذين رفعناك من هاوية القذارة وسنردّك ثانية إليها ، وإنى لمتحدّيك ومنذرك لتعلم علم اليقين أنى منذ هذه اللحظة فصاعداً سألحق بك من الأذى كل مافى قدرتى » .

المؤامرة ضدّ الصليبيين

١٠٦ — فلما فرغ الدوج من قوله هذا تركه وعاد حيث اجتمع اللوردات وجميع كبار رجالات الجيش والبنادقة للتشاور فيما بينهم عما يفعلونه ، فقال البنادقة إنهم لا يستطيعون نصب سلالمهم وآلاتهم على السفن بسبب شدّة برودة الجوّ إذ كان الفصل بين جميع القديسين وعيد الميلاد.

وبينما كانوا فى شدّة الضيق عمد الإمبراطور ورجاله الخونة الذين كانوا معه إلى تدبير خيانة كبرى فأخذوا السفن إلى المدينة ليلا وملئوها بالخشب الشديد الجفاف ووضعوا معها قطعاً من الدهن وأضرموا النار فى ذلك كله ، فلما أوشك الليل على الانتصاف وكانت السفن تتقد ضراما حيث هبّت ريح قوية فك الإغريق جميع هذه السفن المشتعلة بغية إحراق بحرية الفرنسيين فدفعت الريح تلك المراكب دفعاً قوياً نحو البحرية .

فلما رأى البنادقة ما جرى بادروا إلى اعتلاء صنادلهم وأغربتهم ونجحوا فى ذلك نجاحاً عظيما ونجا الأسطول من أن يصاب بضرٍّ بفضل رحمة الله .

١٠٧ — على أنه بعد أسبوعين من ذلك الحادث عاود الإغريق ارتكاب هذا العمل مرة أخرى ، فلما شاهدهم البنادقة ثانية هبوا لقتالهم ودافعوا عن أسطولهم من أن تمتد إليه النار ؛ وكان من رحمة الله عليهم أن لم تصبهم خسارة سوى أن علق الحريق بسفينة تجارية كانت راسية هناك فأتت عليها .

١٠٨ — وكان الغلاء فاحشاً متفشياً فى المعسكر حتى لقد بيعت كل باطية واحدة من الخمر باثنتى عشرة سوسية ، كما بيعت الدجاجة بعشرين سوسية والبيضة بينسين ، لكن لم تكن هناك مثل هذه الندرة فى البقسماط بل الواقع أنه كان متوفراً بما يسدّ حاجة الجيش بعض الوقت .

تحصين الإغريق للمدينة

١٠٩ — فى أثناء إقامتهم ذلك الشتاء هناك شرع أهل المدينة فى تقوية وسائل الدفاع أعظم تقوية وزادوا فى ارتفاع أسوارهم وأبراجهم أكثر مما كانت عليه من قبل ، وصنعوا أبراجاً خشبية أقاموها على هذه الأبراج الحجرية وجهزوها بمعدات مصنوعة من ألواح قوية مغطاة بجلد مدبوغ متين حتى لم يعودوا يخافون من سلالم سفن البنادقة ، وكان ارتفاع الأسوار ستين قدماً وعلوّ الأبراج مائة ، ثم زوّدوا الأسوار الموجودة

داخل المدينة بأربعين مقلاعاً وزّعوها على النواحى التى توقعوا أن يكون الهجوم منها ؛ ولا عجب أن يتخذوا كل هذه الإجراءات إذ توفر لديهم من الفراغ الكبير ما صرفوه فيها .

١١٠ — بينما كانت هذه الأمور والاستعدادات تجرى على قدم وساق اجتمع مرزفلس — الذى كان الإمبراطور قد أطلقه من حبسه — بالإغريق الذين كانوا يضمرون الغدر بالإمبراطور [ألكسيوس الرابع] وراحوا يدبرون مؤامرة كبرى ضدّه ، إذ كانوا يريدون إقامة بديل له إمبراطوراً كى يخلصهم من الفرنسيين ، فقد بدا لهم أن الكسيوس [بن إسحق] لم يعد صالحاً لتحقيق آمالهم ، وأخيراً قال مرزفلس : « لو تركتم الأمر لى ونصبتمونى إمبراطوراً فإننى سوف أخلصكم من الفرنسيين ومن هذا الإمبراطور ويطمئن بالكم نهائياً من ناحيتهم » . فأجابوه إنهم منصبوه إمبراطوراً إن خلصهم منهم ، وإذ ذاك أقسم لهم مرزفلس أنه سوف يحررهم منهم فى مدى أسبوع واحد ، ومن ثم اتفقوا على توليته إمبراطوراً .

مرزفلس إمبراطوراً

١١١ — خرج مرزفلس دون أن يضيع دقيقة من الوقت واستصحب معه جماعة من العسكر واقتحم بهم - تحت جنح الدجى - الحجرة التى ينام بها مولاه الإمبراطور الذى كان قد خلصه من حبسه ، وأمرهم بعقد حبل حول عنقه وشنقوه هو وأباه إسحق أيضاً ، فلما فرغ مرزفلس من ذلك مضى للذين اتفقوا وإياه على تنصيبه إمبراطوراً وأفضى إليهم بما فعل ، فذهبوا معه وتوّجوه إمبراطوراً عليهم .

١١٢ — حين أصبح مرزفلس إمبرطورا دوت الصيحة فى جميع أرجاء المدينة « ما هذا الأمر ؟ مرزفلس إمبراطوراً ؟ لقد اغتال مولاه ؟ » .

ثم رمى أحدهم عن قوسه بكتاب من المدينة إلى داخل معسكر الحجاج يتضمن ما فعله مرزفلس ، فلما وقف البارونات على جلية الخبر قال بعضهم : « لتحل لعنة الرب على من يهتم عمّا إذا كان ألكسيوس حياً أم ميتاً » ، وقد قالوا ذلك لأن ألكسيوس لم يشأ حفظ عهده مع الحجاج ، على حين قال البعض الآخر إن مصرعه على هذه الصورة يقع على رأسهم .

١١٣ — وبادر مرزفلس بإنفاذ رسالة إلى كونت فلاندر وكونت لويس وإلى المركيز وبقية كبار البارونات يأمرهم فيها بالرحيل والجلاء عن أرضه ويعلن إليهم فيها أنه قد غدا إمبراطوراً وينذرهم بأنه سوف يفتك بهم جميعاً إن لم يرحلوا فى مدى أسبوع من يومهم هذا ، فلما وقف البارونات على كتاب مرزفلس قالوا « سبحان الله ! أيجرؤ هذا الذى اغتال مولاه غدراً وخيانة تحت جنح الظلام أن يبعث إلينا بهذه الرسالة ؟ » وراحوا فكتبوا إليه كتابا ينبئونه فيه بتحديهم إياه ويخيفونه من بأسهم لأنهم لن يرفعوا الحصار حتى يثأروا لمن اغتاله وحتى يستردوا القسطنطينية ثانية وينالوا أجرهم الذى وعدهم به ألكسيوس كاملا غير منقوص .

١١٤ — فلما سمع مرزفلس هذا الكلام أمر أهل المدينة بتدعيم الأسوار والأبراج وتجهيزها بالمناجيق حتى يأمنوا هجوم الفرنسيين عليهم ، ففعلوا ما أمرهم به وأصبحت الأسوار والأبراج أقوى مما كانت عليه من قبل وأشد منعة .

جون ملك ولاشيا

١١٥ — وفى هذه الأثناء التى أصبح فيها مرزفلس إمبراطوراً والتى اشتد فيها البؤس بجيش الفرنسيين كما أنبأتك من قبل ، وفى الوقت الذى كانوا يعدون فيه سفنهم وآلاتهم للهجوم . . أقول حدث فى هذه الأثناء كلها أن بعث جون الولاشى برسالة إلى كبار البارونات يخبرهم فيها أنه سيعتبر أرضه ومملكته إقطاعاً منهم له إن هم توّجوه ملكا ليكون صاحب أرضه ولاشيا ووعدهم بالقدوم للوقوف إلى جانبهم فى مائة ألف رجل ليكون عونا لهم فى استيلائهم على القسطنطينية .

١١٦ — كانت « ولاشيا» أرضا تابعة للإمبراطور ، أما جون هذا — الذى كان ذات مرة جنديا من جنود الإمبراطور — فقد كان قوّاماً على أحد مراعى جياد الإمبراطور الذى كان إذا بعث فى طلب ستين أو مائة حصان بعث جون هذا بالجياد التى طلبها ، وجرت عادته على الحضور إلى البلاط كل سنة قبل أن يسوء ما بينه وبين البلاط ، وحدث أن ذهب ذات يوم فأجرم أحد خدم الإمبراطور — وكان خصيًّا — فى حقه جرماً شنيعا إذ ضربه بسوط فى وجهه ضربة اغتم لها غما مريرا ، لذلك ترك جون الولاشى خدمة الإمبراطور غاضباً من هذه الإهانة التى لحقته ومضى إلى ولاشيا وهى بلاد منيعة تحوطها الجبال من كل النواحى حتى إنه لا يستطيع أحد ما دخولها أو الخروج منها إلا عبر ممرّ ضيّق .

١١٧ — فلما وصل جون إلى « ولاشيا » شرع فى ضمّ كبار رجالاتها إليه وسلك مسلك الرجل الغنىّ الذى على جانب من القوة ، فأخذ فى

قطع العهود لهذا وذاك بصورة سرعان ما أخضعت له جميع أهل القطر وأصبح سيداً عليهم ، فلمّا صار إلى هذه الحال ذهب إلى جماعة الكومان وغيرهم واتخذوه صديقاً لهم وانخرطوا جميعهم فى خدمتــه وأصبح سيّداً عليهم .

الكومان فى رأي كلارى

١١٨ — وتقع بلاد كومانيا Coumania على حدود ولاشيا ، وسأخبرك من هم هؤلاء الكومان .

الكومان شعب همجى لا يزرعون ولا يحصدون ولا يقيمون فى أكواخ أو بيوت بل فى خيم من اللباد ، ويعيشون على اللبن والجبن واللحم ، ويكثر الذباب والبعوض فى الصيف كثرة يندر معها أن يخرجوا من خيمهم قبل حلول فصل الشتاء الذى فيه يندفعون من أرضهم حين يريدون القيام بغزوة .

١١٩ — وسنخبرك الآن عما يفعلون .

يملك كل واحد منهم مالا يقل عن عشرة جياد أو إثنى عشر جواداً ، وهم يدربونها تدريباً جيداً فتتبعهم أنـّى أرادوا الذهاب ومتى أرادوا ، ويتبادل الكومانى ركوب الجياد واحداً بعد آخر ، فإذا كانوا فى غزوة وضع لكل حصان مخلاة على أنفه تحتوى على علفه يأكل منها وهو يتبع صاحبه ولا يتوقفون عن السير ليلا أو نهاراً ، ويغذون السير حتى إنهم ليقطعون فى يوم واحد وليلة واحدة مسيرة ستة أيام ، وأحياناً مرحلة سبعة أيام أو ثمانية ، ولا يستولون على شىء أو يحملونه معهم أثناء زحفهم لكنهم فى أثناء

عودتهم يحملون الغنيمة ويأسرون ويأخذون كل مايستطيعون الاستيلاء عليه ، كما أنهم لا يخرجون مسلحين بل يلبسون لباساً من جلد الغنم ويحملون القسىّ والسهام ، وهم لا يعبدون شيئاً إلا أول حيوان يصادفونه فى الصباح ومن يصادفه يعكف على تقديسه طول يومه أياً كان نوع هذا الحيوان .

١٢٠ — هؤلاء هم الكومان الذين اصطنعهم جون الولاشى الذى اعتاد أن يغير كل سنة على أراضى الإمبراطور ويظل يوغل حتى يبلغ القسطنطينية فى بعض الأحيان ، ولم يكن الإمبراطور من القوة بالدرجة التى تمكنه من دفعه وحماية نفسه منه .

اللاتين يرفضون عرض جون الولاشى

١٢١ — حين سمع البارونات ما يطلبه جون الولاشى منهم قالوا إنهم سيفكرون فى مطلبه حتى إذا استعرضوه وتدبروه انتهوا إلى قرار خاطىء إذ أجابوه أنهم لا يعبأون مطلقاً به ولا بمساعدته إياهم ، وأنه ينبغى عليه أن يدرك جيداً أنهم سوف ينزلون به الأذى وينالونه بالضرر إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وقد كلفهم هذا القول الأخير ثمناً غالياً ، وكان هذا نكبة جسيمة بالغة وبلية فادحة ، إذ أنه بعث إلى رومة — وقد فشل معهم — من أجل تاجه ، فبعث إليه البابا بكردينال ليتوجه وهكذا تتوج جون وغدا ملكا .

هزيمة مرزفلس

١٢٢ — والآن سنخبرك عن مصيبة أخرى ألمت بسيدى كونت هنرى أخى كونت فلاندر ، ذلك أنه فى غمرة هذه الأحداث وبينما كان الفرنسيون مقيمين على حصار القسطنطينية حدث أن رأى لورد هنرى وجماعته أنفسهم فى فقر مدقع وأنهم فى حاجة ماسة إلى القوت وغيره من الضروريات ، ثم سمعوا بخبر مدينة اسمها فيليا Philea تبعد عن معسكرهم بقدر عشرة فراسخ ، وكانت مدينة شديدة الثراء والخصب ، فلم يكن من كونت هنرى إلا أن أعد آلاته لمهاجمة هذه المدينة وتسلل من المعسكر متسربلا بظلام الليل فى ثلاثين فارساً وكثير من الجند الممتطين جيادهم ، ولم يعلم أحد من أهل المعسكر بخبر خروجهم .

١٢٣ — فلما جاء إلى المدينة أنجز بغيته ولبث بها يوما ، غير أن البعض كان قد أبصره وهو فى طريقه إليها فأفضى بخبره إلى مرزفلس الذى ما كاد يسمع ذلك النبأ حتى جمع قرابة ألف رجل مسلحين على جيادهم ، وأخذ معه أيقونة هى تمثال سيدتنا التى يطلق الإغريق عليها هذا الاسم والتى يحملها الأباطرة معهم حين يخرجون للقتال ، ولهم إيمان عميق بهذه الأيقونة حتى إنهم ليعتقدون اعتقاداً جازماً أن حاملها لن يهزم فى القتال أبداً ، ونحن نؤمن بذلك أيضاً ، لأنه لم يكن لمرزفلس الحق فى حملها ومن ثم دارت الدائرة عليه .

كان الفرنسيون قد بعثوا إلى المعسكر بغنيمتهم ، وكان مرزفلس قد نصب لهم كميناً فى طريق عودتهم ، فلما أصبح على بعد فرسخ من

رجالنا أخفى رجاله ونصب كمينه دون أن يعرف رجالنا شيئاً عنه ، وكانوا عائدين مسرعين جاهلين ما دبر لهم ، فلما رآهم الأغريق صرخوا عليهم ، فتلفت رجالنا الفرنسيون حولهم فلما شاهدوهم استولى عليهم الخوف الشديد وراحوا يدعون الله وسيدتنا دعاء حاراً ، وفزعوا فزعاً بهمت عليهم معه السبل ولم يعرفوا ماذا يفعلون ، وأخيرا قال بعضهم لبعض : « لو فررنا فإننا لا محالة هالكون ، وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فلنقاتل حتى نموت ، فذلك أجدى علينا من الفرار » .

وإذ ذاك توقفوا وجاءوا بثمانية من رماة السهام ممن كانوا معهم وجعلوهم فى الطليعة ، وتقدم نحوهم الإمبراطور مرزفلس الخائن وكذلك الإغريق فى خطى سراع وكروا عليهم كرة عنيفة ولكنهم لم يستطيعوا بفضل الرب أن ينزلوا واحداً من الفرنسيين من فوق جواده ، فلما رآهم الفرنسيون يهاجمونهم من كل صوب تركوا رماحهم واستلوا مُديّهم وخناجرهم التى معهم دفاعاً عن أنفسهم وقتلوا الكثيرين منهم .

١٢٥ — وإذ رأى الإغريق غلبة الفرنسيين عليهم طارت قلوبهم شعاعاً وولوا هاربين ؛ غير أن رجالنا الفرنسيين تعقبوهم وذبحوا منهم خلقاً كثيرين وأسروا فئة كبيرة وأصابوا غنيمة هائلة ، ثم راحوا فى آثار الإمبراطور مسافة تقرب من نصف فرسخ اعتقادا منهم أنهم لا بد ممسكوه ، وكان مرزفلس وفريقه فى عجلة من أمرهم فوقعت الأيقونة منهم كما سقطت خوذة الإمبراطور وصولجانه وأيقونته التى كانت كلها من الذهب ومطعمة بالأحجار الكريمة ، وكانت جميلة غالية حتى لم يحدث قط أن رأت العين لها مثيلا .

١٢٦ — فلما رأى الفرنسيون ماجرى كفوا عن مطاردتهم وازدهتهم الفرحة وأخذوا الأيقونة وجاءوا بها ونفوسهم تفيض بهجة وغبطة .

وفى هذه الأثناء التى كان القتال دائراً فيها جاء الخبر إلى المعسكر أن [رجال كونت فلاندر وهنرى] نازلوا الإغريق ، فلما سمع من بالمعسكر هذا النبأ حملوا أسلحتهم وانطلقوا راكضين لملاقاة لورد هنرى وإنجاده ، لكنهم حين وصلوا إلى هناك وجدوا الإغريق قد فروا وأن رجالنا الفرنسيين عائدون بالغنيمة حاملين معهم الأيقونة الغالية الجميلة كما أخبرتك .

١٢٧ — فلما دنوا من المعسكر خرج من به من الأساقفة ورجال الدين فى موكب لمقابلتهم ، وتلقوا الأيقونة بالفرح العظيم والسرور البالغ ، وعهد بها إلى أسقف تروى الذى حملها إلى المعسكر حيث كانت هناك كنيسة اشتركوا جميعاً فى ترميمها ، وأدى الأسقف الخدمة وهللوا لها تهليلا كبيراً ، ومنذ ذلك اليوم الذى استولوا فيه على الأيقونة قرر جميع البارونات وجوب إعطائها إلى سيتو Citeaux ومن ثم حملت إليها فيما بعد .

١٢٨ — ولما عاد مرزفلس إلى القسطنطينية أدخل فى روع أهلها أن النصر كان فى جانبه وأنه أنزل الهزيمة بلورد هنرى وجماعته ، فسأله بعض الإغريق فوراً « وأين الأيقونة والصولجان ؟ » فأجابهم آخرون : « إن كل شيء قد وضع على حدة فى مكان أمين محافظة عليه » ، وتناقل الناس الخبر حتى نمى إلى سمع الفرنسيين أن مرزفلس قد أوهم قومه أنه غلب الفرنجة ، فلم يكن منهم إلا أن جهزوا غراباً وشحنوه بالرجال وأخذوا معهم الأيقونة ورفعوها عالية فوق هذا الغراب ، كما رفعوا إلى

جانبها الصولجان الإمبراطورى ، وجعلوا هذا الغراب يروح جيئة وذهاباً بما حمل أمام الأسوار ، فرآه من كانوا عليها وكثيرون من أهل المدينة ، وعلموا علم اليقين أن هذين إنما هما صولجان الإمبراطور وأيقونته .

١٠٩ — حين رأى الإغريق هذا المشهد جاءوا إلى مرزفلس وشرعوا فى السخرية به وتقريعه على فقده الصولجان الإمبراطورى والأيقونة وعلى ما افتراه عليهم من أنه هزم الفرنسيين ، فلما سمع الإمبراطور قالتهم راح يلتمس لنفسه كل عذر وقال لهم : « لا تغتموا ولا تحزنوا فإننى سوف أحملهم على دفع الثمن غالياً وسأنتقم منهم لنفسى »

تقسيم الصليبيين للتركة اليونانية

١٣٠ — ثم جاءت الأخبار بعدئذ بأن جميع الفرنسيين البنادقة عقدوا فيما بينهم اجتماعاً للتشاور عما يفعلونه وفيمن يقيمونه إمبراطوراً إذا ما استولوا على المدينة ، واتفقوا أخيراً فيما بينهم على أن يأخذوا عشرة من أفضل الفرنسيين فى الجيش وعشرة مثلهم من أحكم البنادقة ، ويترك تقرير ذلك الأمر لهؤلاء الرجال العشرين على أن يلتزم الجميع تنفيذ مايقرّرونه ، وأجمعوا على أنه إذا وقع الاختيار على أحد من الفرنسيين ليكون إمبراطوراً كان البطرك من البنادقة ، كما اتفقوا على أن يؤول ربع المدينة لمن يصبح امبراطوراً ملكاً خالصاً له لا يشاركه فيه أحد ؛ أما الثلاثة الأرباع الباقية فتقسم نصفين أحدهما للبنادقة وثانيهما للحجاج ، وأن يعتبر كل شىء إقطاعا من الإمبراطور .

١٣١ — فلما اتفقوا على كل هذه الأمور استقدموا جميع رجال الجيش وجعلوهم يقسمون على الآثار المقدسة قسما يجلبون بمقتضاه إلى المعسكر مباشرة كل مايقع فى أيديهم من الأسلاب والغنائم : فضةً كانت أم ذهباً ، وكذلك الأقمشة الجديدة إذا بلغت قيمتها خمس سوسات أو أكثر ، ولم يستثنوا من ذلك غير الآلات والمأكل ، كما أقسموا ألا يستعملوا العنف والشدةمع أيةامرأة أو يجردوها من أى لباس ترتديه، ومن أمسك متهما بذلك كان جزاؤه القتل ، كذلك جعلوهم يقسمون على الآثار المقدّسة ألا يتعرضوا لراهب أو قسيس أو كاهن بسوء إلا دفاعاً عن النفس ، وألا يقتحموا كنيسة أو ديراً .

١٣٢ — كان فراغهم من ذلك كله بعد انقضاء عيدالميلاد واقتراب بدء الصيام الكبير ، وكان البنادقة والفرنسيون قد هيأوا أنفسهم مرة ثانية وجهزوا سفنهم ، فأقام البنادقة ثانية جسوراً على سفنهم وصنع الفرنسيون آلات يسمونها « بالقطط » و « العربات » والخنازير لمخمة الأسوار .

معاودة قتال العاصمة

١٣٣ — وأخذالبنادقةأخشاب المنازل وغطوا بها سفنهم بعد أن ربطوا الألواح بعضها إلى بعض ثم أخذوا فروع أشجارالكرم وغطوا بها الألواح حتى لاتحطم المقاليع السفن أو تكسرها قطعاً .

١٣٤ — أما الإغريق فقد حصنوا مدينتهم من الداخل أحسن تحصين وغطوا الأبراج الخشبية القائمة على قمة الأبراج الحجرية بالجلد المدبوغ

من الخارج ، وكان كل برج من الأبراج الخشبية يشمل سبعة أوستة طوابق ولا يقل عن خمسة أبداً .

١٣٥ — وحدث فى أحد أيام الجمعة — وكان ذلك قبل أحد السعف بعشرة أيام تقريباً — أن أعدّ الحجاج والبنادقة سفنهم وآلاتهم وتأهبوا للمضى للهجوم فوضعوها جنباً إلى جنب ، أما الفرنسيون فقد حملوا آلاتهم على الصنادل والأغربة وتأهبوا للمضى إلى المدينة ، وامتدت الأساطيل أمامها مسافة فرسخ ، وتسلح الحجاج والبنادقة خير تسليح .

١٣٦ — وكان بالمدينة جبل يقع فى تلك الناحية التى اتفق على أن يكون الهجوم عندها ، وكان من السهل رؤية هذا الجبل من السفن عالياً فوق السور ، فجاء الإمبراطور مرزفلس الخائن مع بعض رجاله إلى هذه الرابية ونصب عندها خيمته القرمزية ، وأحدث نفخ أبواقه الفضية ودفوفه جلبة صاخبة شديدة ، وكان من اليسير على الحجاج أن يروا الإمبراطور وأن يرى الإمبراطورُ سفن الحجاج .

ولما أوشكت البحرية على الإرساء أخذوا أمراساً قوية سحبوا بها سفنهم حتى صارت أقرب ما تكون إلى الأسوار ، ونصب الفرنسيون آلاتهم وقططهم وعرباتهم الملغمة الأسوار ، واعتلى البنادقة جسور سفنهم وهاجموا الأسوار فى بسالة ، وكذلك هاجمها الفرنسيون بآلاتهم .

١٣٧ — فلما رأى الإغريق الفرنسيين يهاجمونهم على هذه الصورة أخذوا فى دحرجة كتل ضخمة من الأحجار أكبر مما يتصور على آلات

الفرنسيين فأخذت فى تحطيمها ودمرتها بأجمعها حتى إنه لم يجرؤ أحدها على البقاء داخلها أو تحتها .

١٣٨ — أما البنادقة فلم يستطيعوا الوصول من ناحيتهم إلى الأسوار أو الأبراج لشدة ارتفاعها ، ، لم يتمكنوا هم ولا الفرنسيون فى ذلك اليوم من إنجاز شىء ما بالأسوار أو بالمدينة ، فلما أدركوا أنهم لم يستطيعوا عمل شىء ما فاضت قلوبهم غماً وانسحبوا ، فلما رآهم الإغريق يرتدون شرعوا فى الصفير والصياح عليهم بشدة ، وتسلقوا الأسوار ودلوا سراويلهم وولوهم ظهورهم ، فلما رأى مرزفلس ارتداد الحجاج أخذ فى دق طبوله ونفخ أبواقه وأحدث جلبة قوية وبعث فى طلب قومه وأخذ يقول لهم : « انظروا أيها السادة ، ألست إمبراطوراً صالحاً ؟ إنه لم يتات لكم أبداً مثل هذا الإمبراطور الصالح ، ألم أفعل جيداً ؟ إننا لم نعد نخشاهم وسوف أشنقهم جميعاً وأمرّغهم فى الوحل » .

فلما رأى الحجاج ذلك بلغ بهم الغضب غايته والأسى منتهاه وعادوا إلى معسكراتهم فى الناحية الأخرى من الميناء .

١٣٩ — ولما عاد البارونات وغادروا السفن اجتمعوا كلهم وقد اضطربت أمورهم اضطراباً شديداً وقالوا إن ما ارتكبوه من الخطايا كان علة عدم انتصارهم فى المدينة ، وأخيراً تشاور الأساقفة ورجال الدين فيما بينهم وقرروا بأن المعركة كانت عادلة وأنهم كانوا محقين فى مهاجمتهم إياهم ، لأن أهل المدينة كانوا قديماً من أتباع مذهب رومة ولكنهم الآن خارجون عليه زاعمون أنه لا يساوى شروى نقير ، وأن جميع

المؤمنين به إن هم إلا كلاب ؛ وعلى هذا الأساس قال الأساقفة إنهم كانوا محقين فى محاربتهم إياهم ، وأن ليس فى الهجوم عليها خطئاً ما بل إنه عمل مشروع .

١٤٠ — ثم نودى فى كافة أرجاء المعسكر بوجوب ذهاب الجميع من بنادقة وغيرهم للصلاة صباح الأحد ، ففعلوا ذلك ، وأخذ الأساقفة يعظون فى المعسكر ، فقام بالوعظ أسقف سواسون وأسقف تروى وأسقف هلبرشتات والسيد جون فيسيت ورئيس ديرلوس ، وبينوا للحجاج شرعية المعركة ، لأن الآخرين كانوا خونة سفاكين غدارين لاسيما بعد أن فتكوا بمولاهم الشرعى ، وأنهم أسوأ من اليهود ، وقالوا إنهم سوف يهاجمون جميع من يهاجمونهم باسم الله وبقوة البابا الرسولى .

١٤١ — ثم أصدر الأساقفة أمرهم إلى جميع الحجاج بالاعتراف وتناول القربان وألا يكونوا خائفين من مهاجمتهم الإغريق لأنهم أعداء الرب ؛ كذلك صدرت الأوامر بالتفتيش عمن فى المعسكر من النسوة الساقطات وإخراجهن منه وإبعادهن عنه ، ومن ثم وضعوهن جميعهن على إحدى السفن وأرسلوهن بعيداً عن المعسكر .

١٤٢ — ولما فرغ الأساقفة من وعظ الحجاج وأبانوا لهم أن قتالهم الإغريق هذه المرة أمر مشروع أخذ الجميع فى الاعتراف وتناول القربان .

١٤٣ — فلما كان صباح الاثنين استعد الحجاج أجمعهم ولبسوا سلاحهم وفعل البنادقة فعلهم ، ثم أخذوا فى ترميم الجسور التى على السفن

وأعدوا مراكب حمولتهم وأغربتهم ووضعوها جنباً إلى جنب تأهباً للهجوم ، وكانت البحرية تمتد على جبهة تقدر بفرسخ ، ولما وصلوا إلى الشاطىء واقتربوا غاية الاقتراب من الأسوار ألقوا مراسيهم ، ثم شرعوا فى الهجوم العنيف وفى إطلاق الطلقات وقذف الأحجار ورمى الأسوار بالنار الإغريقية التى لم تستطع الثبوت عليها بل أخذت فى التدحرج بفضل الجلد المدبوغ الذى كانت الأسوار مغطاة به .

معجزة دخول البرج

١٤٤ — ولقد دافع من بالمدينة عن أنفسهم دفاعاً مجيداً وكان لديهم ستون مقلاعاً لرمى القذائف ، وكانوا فى كل رمية يصيبون السفن ، إلا أنها كانت مغطاة بالألواح وأعراش الكرم فلم يصبها الرمى بضر رغم ضخامة الأحجار التى راحوا يقذفونها بها حتى ليعجز الرجل عن رفع أحدها من الأرض .

١٤٥ — وكان مرزفلس واقفاً على الرابية ينفخ أبواقه ويدق طبوله دقا مفزعاً ويشجع رجاله قائلا لهم : « اذهبوا هنا ، امضوا إلى هناك » ، وكان يرسلهم إلى حيث يرى الحاجة ماسة لوجودهم .

١٤٦ — لم تستطع غير أربع أو خمس سفن من جميع سفن الأسطول الوصول إلى الأبراج الشديدة الارتفاع ، أما الأبراج الخشبية المنصوبة على قمة الأبراج الحجرية والتى يبلغ ارتفاعها خمسة أو ستة أو سبعة طوابق فقد شحنت كلها بالمقاتلة دفاعاً عنها ، ودأب هؤلاء المقاتلون على الهجوم حتى قيّض الرب المعجزة حيث حمل البحر المضطرب سفينة أسقف

سواسون فصدمت أحد هذه الأبراج ، وكان على جسر هذه السفينة بندقىّ وفارسان مسلحان ، فلما اصطدمت بالبرج تعلق البندقى به بيديه وقدميه ودفع نفسه ما وسعه الجهد إلى داخله ، فلما صار به تلفت الجنود الذين كانوا بهذا الطابق حولهم — وهم من الإنجليز والدانمركيين والإغريق — ورأوه فاندفعوا نحوه وتناوشته بلطهم وسيوفهم ومزقوه إرباً .

١٤٧ — ثم حملت الأمواج هذه السفينة مرة أخرى إلى الأمام فاصطدمت ثانية بهذا البرج ، فما كان من أحد الفارسين واسمه أندرو دوربواز Dureboise إلا أن تعلق بالبرج بيديه وقدميه ودخله زحفاً على ركبتيه ، فلما صار فيه وهو على هذا الوضع اندفع القوم نحوه بفؤسهم وسيوفهم وأخذوا يضربونه ضرباً عنيفاً ، إلا أن رحمة الله تداركته فلم تمكنهم من قتله بفضل الدرع الذى يلبسه ، ولم يشأ الرب أن يطول صمود العدوّ أو أن يموت هذا الفارس ، بل أراد وقوع المدينة فى أيدينا وأن يضرب المذلة على أهلها جزاء خيانتهم وعدم طاعتهم ولما ارتكبه مرزفلس من اغتيال ، ومن ثم انتصب هذا الفارس واقفاً على قدميه ، وسرعان ما استل سيفه من غمده ، فلما رأوه واقفاً اعترتهم الدهشة وتملكهم الخوف الشديد فولوا هاربين إلى الطابق الذى تحتهم ، وحين شاهد من به فرار أهل الطابق العلوىّ لم يجرءوا على البقاء حيث هم فأخلوا هم أيضاً هذا الطابق كذلك .

ثم دخل الفارس فى أعقاب الأول ، واقتحم الطابق فى إثره كثيرون غيره ، فلما صاروا به أخذوا حبالا قوية وشدوا هذه السفينة إلى البرج شداً محكماً ، وإذ ذاك اقتحم البرج حشد كثيف من الناس .

١٤٨ — ولما حمل الموج هذه السفينة بعيداً عن البرج مرة أخرى اهتزّ البرج

هزة عنيفة حتى لقد خيل أن المركب لابد أن توقعه أرضاً ، ومن ثم اضطر أهلها كارهين خائفين إلى فك الحبال التى تربط السفينة بالبرج .

١٤٩ — وإذ تبين أهل الطوابق الأخرى السفلية أن الفرنسيين احتلوا البرج على هذه الصورة استبد بهم الفزع استبداداً عنيفاً فلم يطيقوا البقاء به وأخلوه بأكمله ، وكان مرزفلس يرقب كل هذا وهو يشجع رجاله ويبعث الحماسة فيهم ويرسلهم إلى هذا المكان الذى جاء منه الهجوم الكبير .

١٥٠ — بينما كانت أحداث الاستيلاء على البرج جارية بهذه المعجزة صدمت سفينة بيير دى براشو برجاً آخر ، وإذذاك شرع الواقفون على جسرها فى مهاجمة البرج ببسالة حتى سقط بمعجزة إلهية أخرى .

وإذ تم لنا الاستيلاء على هذين البرجين شحناهما برجالنا الذين لم يجرءوا — حين أصبحوا بداخلها — على مغادرتهما خوفاً مما طالعوه من حشود الناس الكثيفة على السور القريب منهم وفى الأبراج الأخرى الواقعة عند سفح الأسوار ، وكانوا من الكثرة بالدرجة التى تبعث على الدهشة .

موقف كلارى وأخيه

١٥١ — لم يكن من لورد بطرس الدميانى — وقد رأى عدم تقدم من بالأبراج وشاهد ظروف الإغريق — إلا أن نزل إلى الأرض مشياً على الأقدام هو ومن معه ، فبلغوا ناحية ضيقة من الأرض واقعة بين البحر والسور ، فلما صاروا بها نظروا أمامهم وأبصروا سرداباً خلفياً سرياً كاذباً قد نزع بابه ثم سمر مرة أخرى ، فجاء إليه لورد بطرس الدميانى

ومعه جميع الفرسان العشرة والأجناد الستون .

١٥٢ — كان هناك إذ ذاك قسيس اسمه الليوم كلارى Aleaumes Clari وكان جريئاً فى كل ملمة ، فكان الأول فى كل هجوم يكون حاضره ، وقد جاء هذا القسيس فى الاستيلاء على برج غلاطية بكثير من أفعال القوة الجثمانية بز بها فعال أى رجل آخر فى الجيش باستثناء لورد بطرس دى برشوا (وكان دى براشوا هذا هو الذى فاق الآخرين جميعهم : كبيرهم وصغيرهم ، فلم يتأت لأحد قط أن يجاريه فى أعمال البسالة فى السلاح والقوة البدنية) ، فلما جاءوا إلى هذا السرداب استبسلوا فى مهاجمته بمعاولهم ، وكانت رميات رماة السهام تتطاير بشدة ، وراحوا يقذفونهم من الأسوار بالأحجار الكبيرة حتى لقد خيل أنهم سيدفنون هناك لكثرة ما رموه عليهم .

١٥٣ — أما الذين تحتهم فكان عليهم دروع وتروس غطوا بها من كانوا يعملون فى نقب السرداب ، وأخذ الباقون يرمون عليهم آنية مملوءة بالقار المغلى والنار الإغريقية والأحجار الضخمة ، لذلك كان عدم هلاكهم معجزة من معجزات الرب ، واحتمل سيدى لورد بطرس الدميانى ورجاله المتاعب والصعاب كثيراً حتى نقبوا هذا السرداب بالفؤوس والسيوف القوية واستعملوا فى ذلك أيضاً كتل الخشب والأعمدة والمطارق حتى أحدثوا به ثغرة كبيرة ، ثم تطلعوا من خلال السرداب فطالعوا أناساً كثيرين من كبار القوم وصغارهم حتى لكأن نصف العالم قد اجتمع هناك فلم يجرءوا على احتمال مغبة دخوله .

١٥٤ — فلما رأى القسيس ألليوم عدم جرأة أحد ما على اقتحامه تقدم وقال إنه سيدخله ، وكان هناك إذ ذاك فارس هو أخوه واسمه

« روبرت دى كلارى » الذى عارضه ونهاه عن اقتحامه، فقال القسيس بل إنه فاعل ذلك ، ثم نزل السرداب زاحفاً على يديه وركبتيه ، فلما شاهده أخوه على هذه الصورة أمسكه من قدمه وراح يجذبه إليه ، إلا أن القسيس استطاع فى النهاية رغم أخيه - راضياً أم كارهاً - أن يدخل السرداب ، وإذ صار به اندفع نحوه كثير من الإغريق ، وحينئذ شرع الواقفون على الأسوار فى رميه بالأحجار الضخمة ، فلما رأى القسيس ذلك استل سيفه وكرّ عليهم كرة حملتهم على الفرار من أمامه فرار الماشية ، فنادى على من بالخارج من لورد بطرس وجماعته قائلا :

« أيها السادة ادخلوا بقوة فإننى أراهم ينسحبون قانطين وقد شرعوا فى الهروب » .

١٥٤ — حين سمع سيدى بطرس وجماعته الذين كانوا بالخارج قوله هذا دخلوا ، وكان هو لا يعدو واحداً من عشرة فرسان ولكن كان معه ستون جندياً كلهم من المشاة وراء الأسوار ، فاشتد الخوف بمن على الأسوار وبمن فى هذه الناحية ، وذلك حين أبصروهم داخل السرداب ولم يطيقوا البقاء حيث هم ، فجلوا عن جزء كبير من السور ولاذوا فراراً ؛ وكان الإمبراطور مرزفلس الخائن قريباً لا يبعد عنهم أكثر من رمية وقد أمر بنفخ أبواقه الفضية ودق دفوفه محدثاً جلبة عالية .

١٥٥ — وحين شاهد الإمبرطور سيدى لورد بطرس ورجاله فى الداخل على أقدامهم همز حصانه همزة قوية مكراً عليهم حتى قطع نصف المسافة التى تفصله عنهم، فلما أبصره سيدى بطرس قادماً أخذ فى تحميس رجاله قائلا لهم : « عليكم الآن أيها السادة أن تستبسلوا فى قتالهم ،

فسنلتحم معهم الآن فى القتال وها هو ذا الإمبراطور قادم فحذار أن يتخلى كائن من كان منكم عن مكانه ، بل فكروا فى إثبات كفاءتكم » .

قتال مرزفلس

١٥٦ — توقف مرزفلس حين أدرك أنهم لا ينوون الفرار، ثم مالبث أن ارتدّ مدبراً غير مقبل متجهاً ثانية إلى دهاليزه ، فلما شاهد سيدى لورد بطرس الإمبراطور قد انقلب على عقبيه أنفذ سريّة من عسكره إلى بوّابة قريبة منه وأمرهم بتحطيمها وفتحها ، فذهبوا وشرعوا فى قطعها وضربها بالفئوس والسيوف حتى حطموا مزاليجها وقضبانها الحديدية الضخمة وفتحوها ، فلما شاهد من بالخارج هذا الأمر أحضروا ناقلاتهم وساقوا منها الجياد وامتطوها واقتحموا المدينة من هذه البوابة فى سرعة عظيمة .

١٥٧ — حين صار الفرنسيون فى الداخل وركبوا جميعهم خيولهم اشتدّ الفزع منهم بالإمبرطور مرزفلس الخائن حتى لقد ترك معسكره وراءه وخلف به أمواله وعاد إلى المدينة التى كانت بالغة الضخامة والاتساع والطول ، إذْ يقال إن مسيرة أسوارها الدائرة حولها تسعة فراسخ كاملة، كما يبلغ طول المدينة فى الداخل فرسخين ومثل ذلك عرضاً ،وهكذا استحوذ سيدى لورد بطرس على معسكر مرزفلس وماتركه خلفه من خزائن ومتاع .

١٥٨ — لم يطق المدافعون عن الأسوار والأبراج البقاء حيث هم بعد مشاهدتهم دخول فرنسيين المدينة وهروب إمبراطورهم ، فلم يجدوا سبيلا سوى

الفرار ما وسعهم الجهد وبذلك سقطت المدينة .

١٥٩ — حين تمّ الاستيلاء على المدينة بهذه الصورة أقام الفرنسيون داخلها حيث كانوا ، وإذ ذاك اجتمع كبار البارونات وتشاوروا فيما بينهم عما ينبغي عليهم عمله ، ثم نودى فى كافة أرجاء الجيش بألا يورد أحد نفسه موارد التهلكة بالتوغّل فى المدينة لما كان ينطوى عليه ذلك الدخول من خطر جسيم خوف أن يرميهم الناس بالحجارة من القصور الضخمة العالية ، أو أن يفتكوا بهم فى الشوارع الشديدة الضيق فيعدمون إذذاك وسيلة للدفاع عن أنفسهم ، أو أن تشتعل النار فى المدينة وراءهم فيهلكون حرقاً .

لم يجرؤ المحاربون — خوفاً من الأخطار والشدائد — على أن ينشدوا أحياء أخرى من المدينة ، أو أن يتفرقوا فيها ، بل أقاموا حيث هم .

خطة البارونات ضد اليونان

١٦٠ — اتفق البارونات على الخطة التالية وهى : أن يسلح الفرنسيون أنفسهم فى صباح الغد وينظموا قواتهم ويقيموا فى انتظار الإغريق فى مكان مكشوف بعيد عن المدينة إذا اعتزم اليونان محاربتهم ، لاسيما وأنهم كانوا بالنسبة للفرنسيين مائة ضعف ، أما إذا امتنع اليونان عن قتالهم ورفضوا تسليم المدينة فعلى الفرنسيين أن يطالعوا الناحية التى تهب الريح منها ، وأن يوقدوا النار ويجعلوها فى مهب الريح وبذلك يحرقون اليونان جميعاً ثم يأخذونهم بالقوة .

وهكذا انعقد إجماع البارونات على هذه الخطة ، فلما حان وقت صلاة المغرب نزع الصليبيون ماعليهم من السلاح واستراحوا وأكلوا ورقدوا هناك تلك الليلة داخل الأسوار أمام أسطولهم .

١٦١ — فلما أوشك الليل على الانتصاف وعرف الإمبراطور مرزفلس الخائن أن جميع الفرنسيين قد أصبحوا داخل المدينة اشتد فزعه ولم تواته الشجاعة على البقاء بها ففر عند منتصف الليل حتى لا يدرى أحد بخبر فراره ، فلما رأى الإغريق هروب إمبراطورهم عمدوا فى نفس تلك الليلة إلى رجل من كبار رجالات المدينة اسمه لاسكاريس Lascaris ونصّبوه إمبراطوراً ، لكنه لم يطق صبراً على البقاء حيث هو ، بل استقل سفينة قبل انبلاج النهار وعبر مضيق سنت جورج واتجه إلى نيقية الكبرى ، وهى مدينة رائعة ، وأقام بها وتملكها وأصبح إمبراطورها .

١٦٢ — فلما أشرق صباح الغد قدم موكب من القسس ورجال الدين فى حللهم الكهنوتية ومعه الانجليز والدانمركيون وغيرهم من أهالى الأقطار الأخرى إلى معسكر الفرنسيين ملتمسين منهم الرحمة بهم ، وأخبروهم بكل ما فعله الإغريق وقالوا إن جميع اليونان قد هربوا من المدينة ولم يبق بها منهم سوى المستضعفين الفقراء ، فلما سمع الفرنسيون هذا النبأ اشتدت بهم الفرحة ، وأمروا أن ينادى فى الجيش ألا يحتل أحد بيتاً حتى تتقرر الصورة التى يتم بمقتضاها تقسيم الممتلكات .

١٦٣ — وبعدئذ اجتمع كبار الرجال والأثرياء معاً واتفقوا على أن يتقاسموا فيما بينهم أحسن مساكن المدينة دُون أن يصل علم ذلك

إلى جمهور الحجاج أو صغار الفرسان . وأخذ البارونات والكبار منذ ذلك الوقت فى خديعة العامة والكذب عليهم وإساءة صحبتهم ، ولكنهم دفعوا ثمن ذلك غالياً فيما بعد كما سنخبرك ، ثم راحوا يغتصبون أحسن بيوت المدينة وأغناها واستولوا عليها كلها قبل أن يدرى الفرسان الفقراء والعامة بهذا الخبر .

فلما علم صغار المحاربين بما جرى مضى كل منهم واستولى على كل ما استطاع الاستيلاء عليه ، فوجدوا كثيرا وأخذوا شيئاً كبيرا وتركوا شيئاً كثيرا ، لأن المدينة كانت شديدة الكبر آهلة بالسكان .

أسلاب القسطنطينية

١٦٤ — أما المركيز [بونيفاس دى مونتفرات] فقد استولى على قصر بوكليون وعلى كنيسة القديسة صوفيا وبيوت البطرك .

وأما كبار الرجال الآخرون أمثال الكونتات فقد استولوا على أغنى القصور وأثرى الأديرة التى صادفوها ، فلما تمّ لهم الاستيلاء على المدينة لم يمدّوا يد الأذى إلى أحد ما : فقيراً كان أم غنياً ، فقد خرج عنها من شاء الخروج وبقى بها من أراد البقاء ، وإن كان أثرى قاطنيها هم الذين غادروها .

١٦٥ — صدر الأمر بعدئذ بجمع كل الغنائم فى كنيسة معينة من كنائس المدينة ، فجئ بها إليها ، واختاروا عشرة فرسان من كبار الحجاج وعشرة من البنادقة ممن توسموا فيهم الأمانة وأقاموهم حراساً على هذه

الثروة ، وهكذا جاءوا بالغنائم وكانت عظيمة جدا ، فكان بها كثير من الأوعية الذهبية والفضية الغالية الثمن ، والملابس المطرزة بالذهب وكثير من الجوهرات الثمينة ، فكان ما جمع هناك منظراً رائعاً عجيبا ، ولم يحدث قط — منذ بداية العالم — أن رأت العين أو غنم قوم مثل هذه الغنيمة الضخمة الغالية العظيمة ، بل لم يحدث ذلك زمن الاسكندر أو شرلمان ولا قبلهما ولا بعدهما ، ولا أظن — أنا شخصيا — أنه توفر فى أغنى مدن العالم الأربعين من الثروة الهائلة ما توفر بالقسطنطينية وما عثروا عليه بها ، إذ يقول اليونان إن ثلثى كنوز العالم موجودة فى القسطنطينية ، أما الثلث الباقى فموزع فى بقية الدنيا ، حتى إن نفس الأشخاص الذين عهد إليهم بالحراسة أخذوا كل ما طمعوا فيه من الحلىّ الذهبية وامتدت يدهم بالسرقة إلى هذه الثروة وإلى كل ما وجدوه ، وأخذ كل رجل غنىّ ماطمع فيه من الحلىّ الذهبية أو الأقمشة الحريرية والمذهبة وسواها وانطلق به ، وبهذه الطريقة شرع الكبار فى سرقة الغنائم حتى لم يبق شىء يتقاسمونه مع عامة الجيش من الحجاج أو الفرسان الفقراء أو العسكر الذين عاونوا فى كسب هذه الغنائم .

أقول لم يبق شىء لمقاسمته مع هؤلاء سوى الفضة المجردة كالأوعية الفضية التى اعتادت نساء المدينة حملها معهن إلى الحمامات .

أما الأسلاب الأخرى التى بقيت للقسمة فقد اختفت بطرق شريرة كما أخبرتك ، لكن أخذ البنادقة — على أية حال — النصف المقرر لهم ، أما الأحجار الكريمة والثروة الكبيرة التى بقيت لتقسم فقد نهبت بأساليب أخرى كما سأقص عليك فيما بعد .

قصر فم الأسد

١٦٦ — بعد أن تم احتلال المدينة وإسكان الحجاج كما ذكرت لك، وبعد الاستيلاء على القصور عثر رجالنا فى القصور على ثروة أكثر مما كانوا يتوقعون، فكان قصر بوكليون (فم الأسد) قصراً غنياً جداً مبنياً على صورة سوف أرويها لك.

١٦٧ — كان فى هذا القصر الذى احتله المركيز خمسمائة قاعة متصل بعضها ببعض ومبنية جميعها بالفسيفساء الذهبية، وفيه ثلاثون كنيسة ما بين صغيرة وكبيرة، تعرف إحداها بالكنيسة المقدّسة، وكانت غنية جداً ورائعة، حتى إنه لم يكن بها من مفصلة باب أو شريط مما يصنع عادة من الحديد إلا وقد صبّ كله من الفضة، ولم يكن بها من عمود لم يصنع من الشب أو الرخام السماقى أو غير ذلك من الأحجار الكريمة الأخرى، وكانت أرض هذه الكنيسة من الرخام الأبيض الذى يحاكى البلور نعومة ملمس وصفاءَ لون، وبلغت تلك الكنيسة من فاحش الثراء والروعة حدّاً يعجز أى امرىء عن تصويرها لك بما حوت من جمال وفخامة، وتضمّ بين جنباتها كثيراً من الآثار المقدّسة الجليلة حتى لقد عثر البعض على قطعتين من صليب الصلبوت فى حجم ساق الرجل ويبلغ طولها ثلاثة أقدام، كذلك وجد بها بعضهم حديد الحربة التى ضرب بها سيدنا فى جنبه، كما وجدوا مسمارين من المسامير التى دُقتْ بها كفاه وقدماه، وعثر أحدهم على قارورة بلورية فيها بعض من دمه، ووجد غيره فى هذه الكنيسة القميص الذى كان يرتديه والذى نزعوه عنه حينما ساقوه إلى جبل الجلجلة، كما عثروا على التاج المبارك الذى توّجوه به والذى صنع

من عيدان القصب ذات الشوك القاطع كأنه أسنة الخناجر .

ووجد أحدهم بها جزءا من ثوب سيدتنا العذراء ورأس سيدى القديس يوحنا المعمدان وكثيراً غير هذا من المخلفات والآثار المقدسة الكريمة التى لا أستطيع تعدادها لك أو إخبارك بها فى صدق تام .

١٦٨ — على أنه كان لا يزال بهذه الكنيسة أثر مقدّس آخر فاتنا أن نذكره لك وهو عبارة عن وعائين ثمينين من الذهب معلقين فى وسطها ويتدليان من سلسلتين من الفضة الثقيلة ، وفى أحد هذين الوعائين قطعة من الآجر وفى الأخرى قطعة من القماش ، وسنخبرك من أين جاءت هذه الآثار المقدسة .

كان بالقسطنطينية ذات مرة رجل طوبانى يعمل فى تسقيف بيت أرملة بالطوب محبة فى الله ، وبينما كان فى عمله متدثرا بخرقة من قماش إذ تبدّى له سيّدنا وقال له : « إعطنى هـذه الخرقة » ، فناوله إياها الرجل الطوبانى فطرحها سيدنا على وجهه فانطبعت ملامحه عليها ثم ردّها ثانية للرجل طالباً إليه أن يحملها معه وأن يمسح بها المرضى ، فمن آمن بها برىء من علته . فأخذها الرجل الطوبانى وحملها معه ، ولكن حدث قبل حمله إياها — بعد أن ردّها إليه الرب — أن مضى بها هذا الرجل الطيب وأخفاها تحت قطعة من الآجر حتى حان وقت صلاة المغرب ، وحينذاك أخذها ليمضى بها إلى حال سبيله ، وبينا هو يرفع الحجر إذا به يبصر صورة السيد مطبوعة على الحجر كما هى على الخرقة ، فحمل الحجر والخرقة معاً وشفى بهما بعدئذ كثيرا من المرضى .

١٦٩ — كان هذا الأثران المقدّسان معلقين فى وسط الكنيسة كما أخبرتك ، وكان فى هذه الكنيسة أثر آخر هو صورة القديس ديمترى المرسومة على لوحة ، وكانت هذه الصورة تنضح بالزيت الكثير الذى لم يكن فى الاستطاعة محوه بالسرعة التى يتدفق بها من الصورة .

قصر بلا شرناى

١٧٠ — [وكان هناك قصر آخر بالمدينة يدعى قصر بلا شرناى] يضم بين جوانبه عشرين كنيسة ، ومالا يقل عن مائتين أو ثلاثمائة قاعة متصل بعضها ببعض ومصنوعة كلها من الفسيفساء المذهبة ، وقد بلغ هذا القصر من الفخامة والروعة حدّاً يعجز كل فرد عن وصفه لك أو أن يروى ثراءه وفخامته ؛ وعثروا فى قصر بلاشرناى هذا على ثروة هائلة جدا إذ وجدوا تيجان الاباطرة السابقين الغالية وحلياً ذهبية ثمينة وأقمشة حريرية غالية ، كما عثروا على الأثواب الإمبراطورية الغالية والأحجار الكريمة النفيسة وعلى كثير من الكنوز العظيمة ، ولا يستطيع أحد أن يقدّر كميات الذهب والفضة الضخمة التى وجدوها بتلك القصور وفى أماكن أخرى كثيرة من المدينة .

١٧١ — ثم أخذ الحجاج فى مشاهدة ضخامة حجم المدينة وقصورها وأديرتها وكنائسها الجميلة وما حفلت به من الروائع العظيمة ، واستبدّ بهم العجب منها غاية الاستبداد وعجبوا أشد العجب لمنظر كنيسة أياصوفيا وما فيها من كنوز .

كنيسة أياصوفيا

١٧٢ — والآن سأخبرك عن كنيسة القديسة صوفيا وكيف قامت .

«سنت صوفيا» يقصد بها فى اليونانية الثالوث المقدس أو Saint Trinité فى الفرنسية ، وهى مستديرة البناء وبها قباب دائرة حولها محمولة على أعمدة ضخمة رائعة جداً ، وليس بها من عمود إلا وهو مصنوع من الشبن أو من الرخام السماقى أو غير ذلك من الأحجار الغالية ، وليس بها عمود إلا وله قدرة على شفاء نوع معين من الأمراض ، فأحدها يزيل أمراض الكليتين إذا حككتا به ، وآخر يبرىء ذات الجنب ، وسواهما يشفى غير هذين من الأمراض الأخرى .

وليس بهذه الكنيسة من باب أو مفصلة أو شريط أو أى شىء آخر مما يصنع من الحديد إلا وهو مصنوع كله من الفضة .

١٧٣ — ومذبح الكنيسة الرئيسى ثمين جداً لا يقدر بمال وإن غلا ، لأن مائدته — التى أمر أحد الأباطرة بصنعها — كانت من الذهب والأحجار النفيسة المفتتة والمخلوط بعضها ببعض ، ويبلغ طول هذه المائدة أربعة عشر قدما .

وحول المذبح أعمدة فضية تسند عرشاً قائماً على الهيكل وهو أشبه ببرج كنيسة مستدق الطرف ، قد صب كله من الفضة الخالصة مما يعجز أى فرد عن تقدير المال الذى يقدر به .

أما المكان الذى يرتلون فيه الإنجيل فكان رائعاً جداً ، بالغ الجمال ، حتى إننا لا نستطيع أن نصف لك كيف صنع .

١٧٤ — وبالكنيسة من الداخل مائة شمعدان ليس فيها واحد إلا وهو معلق إلى سلسلة فضية ضخمة تبلغ قطر ذراع الرجل ، ولكل شمعدان خمسة وعشرون مصباحاً أو أكثر ، ولا يقل ثمن الشمعدان عن مائتى مارك فضى .

١٧٥ — وعلقت إلى حلقة باب الكنيسة الأعظم المصنوع كله من الفضة أنبوبة لا يعرف أحد كنه مادتها ، وهى فى حجم المزمار الذى يعزف عليه الرعاة ، ولهذه الأنبوبة فضيلة سأقص خبرها عليك ، ذلك أنها إذا وضعت — أو وضع أى جزء صغير منها — فى فم مريض يشكو علة فى جسمه كانتفاخ البطن امتصت هذه الأنبوبة منه كل ما به من سقم وأجرت السم من فمه وأبرأته سريعاً ، فتدور عيناه فى محجريه ولا يستطيع التخلص منها حتى تمتص جميع ألمه الذى يعانيه ، وكلما كانت علته شديدة كلما اشتد التصاق الأنبوبة به ؛ أما إذا وضعها سليم فى فمه فلا تثبت به قليلا أو كثيرا .

١٧٦ — وأمام كنيسة سنت صوفيا هذه عمود كبير يبلغ قطره قدر استدارة أذرع ثلاثة رجال وارتفاعه ثلاثمائة قدم ، وهو من الرخام المكفت بالنحاس الأصفر ، والمربوط بأشرطة قوية من الحديد ؛ وعلى ذؤابة هذا العمود لوحة من الحجر منبسطة ، طولها خمسة عشر قدما ولا تقل عن ذلك عرضاً ، وعليها تمثال نحاس لإمبراطور يمتطى حصاناً نحاسياً كبيراً ، وهو يمد يده مشيراً ناحية بلاد الوثنية ، وكانت على التمثال كتابة مؤداها أنه أقسم ألا يهادن المسلمين أبدا ، كما أمسك بالأخرى كرة من الذهب عليها صليب ، ويقول اليونان : إن هذا هو الإمبراطور هرقل .

وعلى كفل الحصان ورأسه وحوله عشرة أعشاش من أعشاش مالك الحزين يبيض فيها كل عام .

كنيسة الرسل والبوابة الذهبية

١٧٧ — وتوجد فى ناحية أخرى بالمدينة كنيسة غير هذه تسمى بكنيسة الرسل السبعة، يقال إنها أعظم وأروع من كنيسة القديسة صوفيا، ولا يستطيع أحد أن يقدر لك ثروة هذه الكنيسة أو يصور لك فخامتها، وهى تضم بين جوانبها جثث سبعة رسل، وبها أيضاً العمود الرخامى الذى أوثقوا إليه سيدنا قبل رفعه على الصليب، ويقال إنه فى هذا المكان يرقد الإمبراطور قسطنطين وهيلينا [أمه] وكثير من الأباطرة سواهما.

١٧٨ — ويوجد فى ناحية أخرى من المدينة بوابة تسمى بالعباءة الذهبية، وعليها كرة أرضية ذهبية عليها رقية يقول الإغريق إنه لن تقع صاعقة بالمدينة طالما هى قائمة فى مكانها، وعلى هذه الكرة أيقونة من النحاس قد تدثرت بعباءة من الذهب وقد مدت ذراعيها إلى الأمام، ومكتوب عليها: « من يعش فى القسطنطينية عاماً يستطع أن تكون له عباءة ذهبية كالتى أرتديها ».

١٧٩ — وتوجد فى ناحية أخرى بالمدينة بوابة ثانية وتسمى بالبوابة الذهبية، وعليها فيلان نحاسيان ضخمان عجيبا المنظر، ولا تفتح هذه البوابة أبداً إلا حين عودة أحد الأباطرة من حرب يكون قد فتح فيها أرض عدوه، فإذا حدث مثل ذلك خرج من بالمدينة من رجال الدين وساروا فى موكب لملاقاته وتفتح البوابة ثم يجيئونه بمركبة من الذهب على شكل عربة ذات أربع عجلات كالتى نسميها كورى Cure، وفى وسط هذه العربة مقعد مرتفع عليه عرش وحوله أربعة أعمدة تحمل مظلة يستظل بها العرش الذى يبدو كأنما قد صيغ كله من الذهب، ويكون الإمبراطور إذ ذاك

لابساً تاجه فيتخذ مكانه على العرش ويدخل من تلك البوابة ، ثم يحمل في هذا المركب إلى قصره في فرح وبهجة عظيمة .

الملعب الإمبراطوري

١٨٠ — وبناحية أخرى من المدينة منظر عجيب آخر ، إذ يوجد على مقربة من قصر فم الأسد ساحة فسيحة تسمى بملعب الإمبراطور ، وتبلغ تقريباً رمية ونصف رمية قوس طولا ورمية واحدة عرضاً .

وحول هذا المكان ثلاثون أو أربعون صفاً من المقاعد يجلس عليها اليونان لمشاهدة اللعب ، تعلوها مقصورة كبيرة شديدة الأناقة والفخامة حيث يجلس الإمبراطور والإمبراطورة وكبار القوم ونساؤهم إذا عقدت حلقات اللعب .

فإذا كان هناك طرفان يلعبان في وقت واحد راهن الإمبراطور والإمبراطورة كل منهما الآخر على أن النصر سيكون في هذا الجانب أو ذاك ، وكذلك يفعل جميع من يشاهدون اللعب .

١٨١ — وعلى طول هذه الساحة المكشوفة حائط يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدماً وعرضه عشرة أقدام ، وعليه تهاويل رجال ونساء وجياد وثيران وجمال ودببة وأسود وشتى أنواع الحيوانات الأخرى ، وكلها مصنوعة من النحاس الأحمر ، وقد أبدعتها يد مبدع صناع فلا يفرقها الناظر عن نظائرها الحيّــــة حتى ليعجز مهرة الصناع في بلاد المسيحية أو الوثنية — مهما بلغوا من البراعة — أن يأتوا لها بضريب في الدقة ، وكانت هذه التماثيل قديما ذات سحر ، أما الآن فقد بطل ذلك السحر .

وقد نظر الفرنسيون إلى ملعب الإمبراطور في عجب حينما شاهدوه .

عجيبة التمثالين

١٨٢ — وثمّ عجيبة غير هذه فى ناحية أخرى من المدينة ، إذ كان يوجد تمثالان من النحاس لامرأتين تفنن صانعهما حتى شاكلا الطبيعة ، وبلغا من الحسن مبلغاً فوق الحسبان ، ولا يقل ارتفاع كل منهما عن عشرين قدماً .

كان أحد هذين التمثالين يمد يده شطر الغرب وقد نقشت عليه عبارات تقول : « سيأتى من الغرب قوم يستولون على القسطنطينية » . أما يد التمثال الآخر فمبسوطة تجاه ناحية مرذولة وعليها كتابة تقول : « هذا هو المكان الذى سيرمونهم فيه » .

١٨٣ — وكان هذان التمثالان موضوعين أمام سوق الصيرفة الذى كان شديد الازدحام ، لأن أغنياء الصيارفة كانوا يجلسون فى هذه البقعة قبل احتلال المدينة وأمامهم أكوام ضخمة من البيزنتات والأحجار الكريمة ، أما بعد الاستيلاء عليها فلم يتخلف منهم بها الكثيرون .

أعمدة النُّسَّاك

١٨٤ — وكان فى ناحية أخرى من المدينة عجيبة كبيرة غير هذه .

كان هناك عمودان قطر كل منهما امتداد أذرعة ثلاثة رجال ولا يقل ارتفاع كل منهما عن ثلاثمائة قدم ، وقد اعتاد النساك أن يعيشوا فوق قمة هذين العمودين فى قلايات صغيرة موجودة بها ، وبالعمودين أبواب يستطيع المرء الصعود منها .

١٨٥ — ونقشت على جدران هذين العمودين صور وتهاويل ، كما دونت نبوءة كل الأحداث والفتوحات التى ألمت بالقسطنطينية أو التى كان مقدراً لها أن تقع ، لكن لم يوجد ثم فرد استطاع فهم واحدٍ من هذه الأحداث حتى يقع الحدث ، وإذ ذاك يهرع الناس إلى هناك ويمعنون النظر فيما يرون فيطالعون ويفهمون لأول مرة خبر ما جرى ، بل إن فتح الفرنسيين هذا كان مدوَّنا ومرسوماً على هذين العمودين، وكذلك السفن التى استعملوها فى الإغارة على المدينة واستولوا بها عليها ، لكن الإغريق لم يستطيعوا لها فهماً قبل وقوع الواقعة ،فلما جرت ذهبوا إلى حيث يقوم العمودان وتأملوا فيما عليهما من الكتابة وصور السفن فإذا بها تقول: «إنَّ قوما قصار الشعر ذوو أسياف حديدية سيأتون من الغرب لغزو القسطنطينية» .

١٨٦ — وقد وجد الفرنسيون بالقسطنطينية — بعد استيلائهم عليها — جميع هذه العجائب التى رويتها لك وغيرها أكثر مما نستطيع قصَّه عليك ، والظن عندى أنه لا يوجد أحد ما على وجه البسيطة يستطيع أن يعدد جميع أديرة المدينة لكثرتها وكثرة من بها من الرهبان والراهبات ، إلى جانب الكنائس الأخرى التى فى خارجها . ولقد قدر من بها من القسس والرهبان وغيرهم بثلاثين ألفاً .

١٨٧ — وسأدع جانبا التحدُّث عن بقية الإغريق : عاليهم ودانيهم، فقيرهم وغنيهم ، كما أننى لن أحدثك عن حجم المدينة وما بها من قصور وعجائب أخرى ، إذ لا يستطيع أحد — كائناً من كان — مهما طال مقامه بالمدينة أن يحصيها أو يخبرك بها كلها ، فإن ذكر لك أحد جزءاً من مئة عما فى كنائسها وقصورها من ثروة وجمال وعظمة بدا لك كأنه يروى أسطورة ولم تصدقه أذناك .

كنيسة القديسة مريم

١٨٨ — وكان من بين العجائب الأخرى كنيسة يسمونها كنيسة مريم قديسة بلا شرناى التى تحتفظ بالحنوط الذى كفن به سيدنا والذى يتصبب كل يوم جمعة حتى يسهل على الناظر رؤية تقاطيع وجه سيدنا ، ولم يدر أحد من الإغريق أو الفرنسيين عما جرى لهذا الحنوط بعد الاستيلاء على المدينة .

١٨٩ — وكان هناك دير قد سجى فيه جثمان الإمبراطور الصالح مانويل ولم يحدث لشخص ما — قديساً كان أم قديسة — أن سجى تسجية رائعة شريفة كما حدث لهذا الإمبراطور .

١٩٠ — ويوجد بهذا الدير اللوحة الرخامية التى أرقدوا عليها سيدنا حينما أنزلوه من على الصليب ، ولا تزال ترى حتى الآن الدموع التى ذرفتها سيدتنا عليه .

اختيار النقباء

١٩١ — حدث بعد ذلك أن اجتمع فى ذات يوم جميع الكونتات وكبار الرجال فى قصر بوكليون (أو بق الأسد) الذى يسكنه المركيز وراحوا يتباحثون فيما بينهم فى ضرورة تنصيب إمبراطور ووجوب انتخاب عشر نقباء من بينهم ، ثم طلبوا إلى دوج البندقية أن يختار هو الآخر نقباءه العشرة .

١٩٢ — فلما سمع المركيز هذا القول أراد أن يكون هؤلاء النقباء

من رجاله وممن يعتقد أنهم لابد أن يختاروه إمبراطوراً تطلعا منه لأن يكون هو نفسه ذلك الإمبراطور ، فلم يوافق البارونات مطلقاً على أن يكون النقباء المختارون من رجاله ، وإن كانوا لم يمانعوا من أن يكون بعض هؤلاء العشرة من بين رجاله .

١٩٣ — فلما وقف دوج البندقية على ما جرى وكان رجلا فاضلا مستقيما قال على مسمع من الجميع : «أيها السادة ، أنصتوا إلى ، إننى أقترح أن توضع القصور تحت حراسة الجيش العامة قبل انتخاب الإمبراطور ، لأنهم إذا اختارونى إمبراطوراً فإننى سوف أذهب مباشرة دون مخالفة وأحتل القصور ، وكذلك الحال إذا اختاروا كونت فلاندر ، فإنه ينبغى أن يمضى لتوه دون أية معارضة لامتلاك القصور ، وهذا هو الشأن أيضاً إذا انتخبوا المركيز ، أو كونت لويس ، أو كونت سانت بول ، أو حتى إذا اختاروا فارساً فقيراً ، فإن من يصبح إمبراطوراً يجب أن يتملك القصور دون أية معارضة من المركيز ، أو من كونت فلانـــدر أو من أى واحد غيرهما » .

١٩٤ — فلما سمع المركيز هذا الكلام لم يستطع معارضته بل أخلى القصر الذى كان يحتله ، فذهب القوم ووضعوا فى القصور حراساً من عامة الجيش للمحافظة عليها .

١٩٥ — بعد أن فرغ دوج البندقية من قالته هذه ، طلب إلى البارونات أن يختاروا رجالهم العشرة ، وأعلن أنه سرعان ما سيختار هو الآخر رجاله العشرة أيضاً . فلما سمع البارونات ما قال ، أراد كل منهم أن يكون

النقباء من أتباعه : أراد ذلك كونت فلاندر ، وكذلك أراد كونت لويس، وكونت سنت بول وغيرهم من كبار البارونات ، وبهذه الطريقة لم يمكنهم أبداً الاتفاق على من يكون النقباء ولا من يختارون .

١٩٦ — لذلك اتفقوا على يوم آخر لاختيار أولئك العشرة ،ولكنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا هذه المرة أيضا على من يختارونهم ، لأن المركيز كان يريد دائما أن يضع من يظن أنهم لا بد مختاروه إمبراطوراً ، وطمع أن يكون إمبراطوراً مهما كان الأمر .

١٩٧ — استمر هذا الخلاف مدة أسبوعين دون أن يتمكنوا من الوصول إلى أى اتفاق فيما بينهم ، ولم يكن ليمر يوم إلا ويجتمعون فيه لبحث هذا الموضوع حتى استقر بهم الرأى أخيراً على أن يكون الناخبون العشرة من بين رجال الدين فى الحملة ومن الأساقفة ورؤساء الأديرة .

١٩٨ — فلما انعقد إجماعهم على هذا الاتفاق مضى دوج البندقية واختار رجاله العشرة بالصورة التى سأرويها لك حيث بعث فاستدعى إليه أربعة ممن يعتقد أنهم أكفأ رجال بلده وجعلهم يقسمون على الآثار المقدسة أنهم سوف يختارون عشرة يعتقدون اعتقاداً جازما أنهم أفضل من فى الحملة من مواطنيهم ، ففعلوا ماسألهم إياه ، فكانوا إذا نادوا أحدهم تقدم ولم يعد يجرؤ على الكلام أو التشاور مع أحد ما ، ثم وضعوه مباشرة فى إحدى الكنائس ، وفعلوا مثل ذلك بالبقية حتى تم للدوج اختيار رجاله العشرة ، فلما صاروا كلهم فى تلك الكنيسة قام البنادقة العشرة والأساقفة بترتيل قداس الروح المقدس ، ملتمسين منه أن يسدد خطاهم ليختاروا الرجل الذى يصلح لهذا المنصب .

اختيار بلدوين إمبراطوراً

١٩٩ — فلما فرغوا من صلاتهم ، اجتمع الناخبون وتشاوروا فيما بينهم ، وراحوا يستعرضون الرجال واحداً بعد واحد حتى استقر رأى البنادقة والأساقفة ورؤساء الأديرة جميعاً على أن يكون الإمبراطور كونت فلاندر ، ولم يعارض فيه أحد ما منهم .

٢٠٠ — فلما فرغوا من اتفاقهم فيما بينهم وأوشك مجلسهم على الانفضاض وكلوا إلى أسقف سواسون مهمة الكلام ، فلماتفرقوا اجتمع كل رجال الجيش لسماع القرار وليعرفوا من الذى يولونه إمبراطوراً ، ثم ساد الهدوءُ الشديدُ الجمع ، وخشى معظمهم وفزعوا أن يعلنوا المركيز إمبراطوراً ، أما مؤيدوه فكانوا فى خوف شديد أن يُسَمُّوا أحداً غير المركيز .

٢٠١ — وفيما هم واقفون فى هدوء بالغ ينتظرون القرار ، إذا بأسقف سواسون ينهض واقفاً على قدميه ويقول : « أيها السادة ، لقد اخترتمونا بموافقتكم الإجماعية لإقامة هذا الانتخاب ، ولقد اخترنا واحداً عرفنا نحن أنفسنا أنه الرجل الكفء لهذه المكانة ، وأنه الفرد الذى يحسن الحكومة إن وُكلت إليه ، وهو خير قادر على تنفيذ القانون ، هذا إلى أنه رجل كريم المحتد شريف النبعة، وسنعلن اسمه لكم ، ذلكم هو بلدوين كونت فلاندر » .

فلماذا ذكر اسمه فرح الفرنسيون أجمعهم أشد الفرح ، لكن كان هناك سواهم أمثال أنصار المركيز ممن اشتد حزنهم .

٢٠٢ — حين تم انتخاب الإمبراطور بلدوين ، انطلق به جميع كبار البارونات والفرنسيين الذين فرحوا له فرحاً شديدا وساروا به إلى قصر بوكليون وهم فى أقصى حالات السرور ، حتى إذا التأم شمل جميع كبار الرجال اختاروا يوماً لتتويج الإمبراطور ، فلما جاء هذا اليوم امتطى الأساقفة ورؤساء الأديرة وجميع كبار البارونات من البنادقة والفرنسيين صهوات جيادهم ويمموا قصر بوكليون ، ثم ساروا بالإمبراطور إلى كنيسة القديسة صوفيا ، وهناك أخذوه إلى ناحية منعزلة بها وأدخلوه حجرة ثم خلعوا ملابسه الخارجية وألبسوه من الساميت القرمزى حذاءً مغطى بالأحجار الغالية ، ثم طرحوا عليه سترة ثمينة جداً كلها مزررة بأزرار ذهبية من الأمام والخلف ، تمتد من الذراعين إلى الحزام .

ثم وضعوا عليه الرداء الملكى وهو نوع من العباءة تتدلى إلى أعلا الحذاءين من الأمام ولكنها طويلة من الخلف حتى إنه ليلفها عند وسطه ثم يلفها على ذراعه اليسرى كأنها مسبحة القسيس . وهى ثمينة ورائعة جدا وكلها مغطاة بالأحجار الكريمة .

ثم ألبسوه فوق ذلك كله عباءة أخرى ثمينة جدا مغطاة كلها بالأحجار الكريمة ، كما صنعت النسور التى تعلوها من الأحجار الكريمة التى بلغ من شدة لألائها حدا يخيل لرائيها معه أن العباءة كلها تتقد .

وصف حفل التتويج

٢٠٣ — ولما ألبسوه على هذه الصورة ساروا به إلى أمام المذبح . وكان كونت لويس أثناء هذا السير يحمل بيرقه الإمبراطورى ، وكونت سنت

بول يحمل سيفه ، والمركيز يحمل تاجه ، وكان هناك أسقفان قد أمسكا بأسلحة المركيز الذى كان يحمل تاجه ، كما وقف أسقفان آخران على جانبي الإمبراطور .

وكان جميع البارونات قد ارتدوا أغلى ما لديهم من الثياب ، ولم يكن ثم من فرنسي أو بندقي لم يرتدِ ثوبا من الساميت أو الحرير .

٢٠٤ — وحين مثل الإمبراطور أمام المذبح ركع على ركبتيه ، وخلعوا من عليه أولا العباءة ، ثم فكوا أزرار السترة المصنوعة من الذهب من الأمام ومن الخلف حتى أصبح عريانا من فوق الزنار ومسحوه بالزيت ، حتى إذا فرغوا من دهنه به ألبسوه السترة ذات الأزرار الذهبية مرة أخرى ، ثم قلدوه الرنك ثانية وشدوا العباءة فوق كتفه .

٢٠٥ — حين فرغ القوم من إلباسه ، والأسقفان يمسكان التاج على المذبح ، مضى جميع الأساقفة ولمسوا كلهم التاج معاً وباركوه . ورسموا علامة الصليب عليه ووضعوه على رأسه ، فعلقوا حول رقبته جوهرة غالية جداً لتكون مشبكا ، وكان الإمبراطور مانويل قد اشتراها مرة باثنتين وستين ألف مارك .

وبعد أن فرغوا من تتويجه أجلسوه على عرش عال ظل عليه أثناء ترتيل القداس ، وقد أمسك الصولجان بإحدى يديه ، وفى اليد الأخرى كرة ذهبية عليها الصليب ، وكانت الجواهر التى يحملها أغلى من أية ثروة يستطيع أى ملك جمعها .

٢٠٦ — فلما فرغوا من سماع القداس جاءوه بفرس أبيض امتطاه ،

وعاد به البارونات بعد نذٍ إلى قصره بكليون ، وأجلسوه على عرش القسطنطينية ، ثم أدوا مراسيم الولاء له باعتباره إمبراطوراً ، وانحنى أمامه جميع الإغريق الموجودين هناك على أنه الإمبراطور المقدس ، ومدت الموائد بالقصر ، وجلس إليها الإمبراطور يأكل هو وجميع البارونات ، فلما انتهوا من طعامهم انصرف البارونات جميعهم وعادوا إلى بيوتهم ، أما الإمبراطور فقد بقى فى قصره .

توزيع الأسلاب

٢٠٧ — حدث بعد ذلك فى يوم من الأيام ، أن اجتمع البارونات وصرحوا فيما بينهم بوجوب توزيع الثروة ، ولم يكن ثم شيء منها قد وزع سوى الفضة العادية التى كانت موجودة هناك مثل الأباريق الفضية التى اعتاد نساء المدينة حملها معهن إلى الحمامات ، فنال كل فارس وجندى راكب وعامة رجال الجيش بل والنساء والأطفال نصيبه منها .

٢٠٨ — وحينذاك قال أليوم دى كلارى القسيس الذى حدثتك عنه من قبل ،والذى كان عظيماجداً فى فنه وقام بكثيرمن أعمال البطولة كما أخبرناك عن ذلك آنفاً وقال إنه يريد أن يأخذ نصيبه كفارس ، فقال البعض إنه ليس من الصواب أن يكون نصيب القسيس مثل نصيب الفارس ، ولكنه أصر لأن لديه جواداً وعنده صدرة مزردة ، شأنه فى ذلك شأن أى فارس ولأنه قام بكثير من أعمال الحرب ، لا يقل فى ذلك عن أى فارس فى الجيش إن لم يزد عن بعضهم ، وأخيراً قضى كونت سنت يول أن ينال أليوم نفس نصيب الفارس ، لأنه قام — كما يشهد كونت سنت يول نفسه — بأعمال

البطولة والفروسية أكثر مما قام به أى واحد من الفرسان الثلاثمائة ، ومن أجل هذا فإنه يستحق أن ينال نصيبه كفارس .

٢٠٩ — وهكذا أقام هذا القسيس الدليل على أن القسس يجب أن ينالوا مثل نصيب الفرسان ، وحينذاك قسمت جميع الفضة العادية كما أخبرتك، أما بقية الغنائم الأخرى من الذهب والأقمشة الحريرية التى كان هناك الكثير منها ، مما يحير الألباب فقد بقيت بلا قسمة، وعهد بحراستها إلى عامة الجيش بعناية فئة من الناس ظن أنهم أمناء فى رعايتهم إياها .

أطماع القادة

٢١٠ — لم تنقض إلا فترة قصيرة جدا على ذلك حتى بعث الإمبراطور فى طلب كبار البارونات ودوج البندقية وكونت لويس وكونت دى سنت يول وجميع البارزين من الرجال ، وقال لهم إنه يريد الخروج لفتح بعض البلاد، فقرروا من ذا الذى يذهب معه ومن ذا الذى يبقى لحراسة المدينة ، واتفقوا على بقاء دوج البندقية وكونت لويس ومعهما بعض رجالهما .

٢١١ — كذلك بقى المركيز ، وتزوج زوجة إسحاق الإمبراطور السابق التى كانت أخت ملك المجر .

ولما رأى المركيز أن الإمبراطور على وشك الخروج وفتح البلاد ، جاء إليه سائلاً إياه أن يقطعه مملكة سالونيكا التى تبعد عن القسطنطينية مسافة خمسة عشر يوما ، فأجابه الإمبراطور أن ليس من حقه عمل ذلك، لأن بارونات الجيش والبنادقة يملكون الجانب الأكبر منها ، ولو كانت

ملك يمينه لأعطاها له عن طيب خاطر وسرور ، ولكنه لايستطيع أن يعطيه الجزء الذى يملكه بارونات الجيش والبنادقة .

٢١٢ — فلما رأى المركيز أنه لم يستطع أخذ هذا الإقليم ، غضب أشد الغضب، وحدث بعد ذلك أن خرج الإمبراطور إلى الناحية التى رتب الخروج إليها ، مستصحباً معه جميع رجاله ، فاستسلمت له القلاع والمدن التى بلغها دون مقاومة ، وسلموه مفاتيحها ، وقدمتْ مواكب القسس والكهنة وهم فى ملابسهم الكهنوتية لمقابلته والترحيب به ، وسجد له الإغريق باعتباره الإمبراطور المقدس ، فوضع الإمبراطور حراسه فى القلاع والمدن التى جاءها ، وفتح معظم البلاد إلى مسافة تمتد رحلة خمسة عشر يوما من القسطنطينية حتى أصبح على مسيرة يوم واحد من سالونيكا .

النزاع بين الإمبراطور والمركيز

٢١٣ — فى الوقت الذى كان فيه الإمبراطور ناهضاً بفتح البلاد ، خرج المركيز بزوجته وجميع رجاله ، ولحق بجيش الإمبراطور قبل مجيئه إلى سالونيكا ، وعسكر على مسافة تقرب من فرسخ منها ، وإذ ذاك جاء بجماعة من المبعوثين أنفذهم إلى الإمبراطور بكلمة منه ألا يدخل أرضه سالونيكا التى صارت ملكا له ، وطلب إليه أن يوقن تماما أنه إن دخلها فلا صحبة له معه ولاطاعة له عليه بعدئذ أبداً ، وأنه من الخير له أن يعود إلى القسطنطينية وينظر إلى ما فيه صلاحه .

٢١٤ — فلما سمع البارونات الذين كانوا برفقة الإمبراطور هذه الرسالة التى بعث بها المركيز إليه اشتد سخطهم عليه ، وتألموا غاية الألم ،

وردوا على المركيز بكتاب ذكروا فيه أنهم لن يتخلوا عن الذهاب إلى سالونيكا ، لا من أجله ولا من أجل رسالته ، أو من أجل أى شىء آخر لأن البلد ليس بلده .

٢١٥ — فلما سمع المركيز هذا الرد انقلب على عقبيه ، وجاء إلى مدينة كان الإمبراطور قد أقام على حراستها بضعة من رجاله فاستولى عليها غدراً ، وإذ ذاك أقام بها حامية من قبله ، فلما فرغ من الاستيلاء عليها ، جاء إلى مدينة أخرى إسمها أدريانو بوليس ، كان الإمبرطور قد خلف بها جماعة من رجاله ، فحاصرها المركيز وأعد قذائفه ومجانيقه لمهاجمتها فقاومه من بها .

٢١٦ — فلما أدرك أنه عاجز عن أخذها بالقوة ، خاطب من كانوا على أسوارها قائلا لهم : « ماقولكم الآن أيها السادة ؟ ألا تعرفون أن هذه المرأة كانت زوجة إسحاق الإمبرطور ؟ » وقدّم زوجته التى قالت لهم : « ماذا ترون الآن ؟ ألا تعرفون أننى أنا الإمبراطورة،وهلا تذكرون ولدىّ الذين أنجبتهما من إسحاق الإمبراطور ؟ » ثم أبرزت إليهم طفليها ، فأجابها أخيراً أحد عقلاء المدينة قائلا : « بلى ، إننا نعرف جيدا أن هذه زوجة إسحاق الإمبراطور ، وأن هذين هما ولداه » .

فقال المركيز : حسناً ، وإذن فلماذا لا تقرون أحد هذين الغلامين سيداً عليكم ؟ »

فأجابه الرجل : « سأخبرك ، عليك أن تمضى الآن إلى القسطنطينية وتتوّجه بها حتى إذا جلس على عرش القسطنطينية وعرفنا ذلك فإننا

إذ ذاك سوف نفعل ماينحتم علينا فعله » .

٢١٧ — بينما كان المركيز قائماً بهذه الأمور ، مضى الإمبراطور إلى سالونيكا وحاصرها ، وكان الجيش حينئذ قد بلغ من المقربة غايتها حتى لم يعد لديهم من الخبز ما يكفى لأكثر من مائة رجل منهم ، ولكن كانت لديهم وفرة كبيرة من اللحم والنبيذ ، ولم يقم الإمبراطور طويلا على حصار المدينة إذ ما لبثت أن استسلمت له فتوفر لديه ما كانوا فى حاجة إليه من الخبز والشراب واللحوم ، ثم عمد إلى وضع حراسه بها ، وعزم على ألاّ يذهب أبعد من هذا بل عاد إلى القسطنطينية .

موت بطرس الدميانى

٢١٨ — ألمت بالجيش بعد ذلك خسارة بالغة وحزن كبير ، إذمات سيدىلورد بطرس الدميانى ، الرجل الطيب القادر ، وقد وافاه أجله وهو عائد فى مدينة تدعى « لابلانش » المجاورة لمدينة فيليب التى ولد بها الإسكندر ، كما مات فى هذه الرحلة خمسون فارساً

خوف المركيز من الإمبراطور

٢١٩ — وبينما كان الإمبراطور عائدا ، جاءه الخبر باستيلاء المركيز على إحدى مدنه غدراً ، وإقامته جماعة من رجاله حراساً بها ، ومحاصرته لأدريا نوبوليس .

فلما سمع الإمبراطور وبارونات الجيش هذا النبأ ، اشتد سخطهم

واغتموا لذلك غماً كبيراً ، وأنذروا المركيز وجماعته أنهم سيقطعونهم عن بكرة أبيهم إربا إرباً ، ولن يتركوهم أحياء إن لم ينضموا إليهم .

٢٢٠ — ولما عرف المركيز أن الإمبراطور راجع خاف أشد الخوف ، واضطرب اضطراب من ارتكب جرماً جسيما ، فلم يدر ماذا يفعل ، ولم يجد من سبيل إلا أن يبعث بكتاب إلى دوج البندقية وكونت لويس وإلى بقية البارونات الذين كانوا قد أقاموا بالقسطنطينية ينبئهم فيها بأنه يضع نفسه تحت حمايتهم ، وأنه مستعد — عن طريقهم — لإصلاح ما ارتكبه من خطأ .

٢٢١ — فلما سمع الدوج والكونت والبارونات الآخرون أن المركيز راغب — عن طريقهم — فى إصلاح ما أفسده ، بعثوا أربعة من الرسل إلى الإمبراطور وأخبروه أن المركيز قد التجأ إليهم بتلك الصورة ، وحذروه أن يصيبه هو أو جماعته بسوء .

٢٢٢ — فلما وقف بارونات الجيش وفرسانه على هذا الكتاب ، أجابوا بأنه لا يستطيع أن يحول بينهم وبين عمل كل ما من شأنه فضيحة المركيز ورجاله وتمزيقهم جميعاً إربا إذا أدركوهم ، ثم هدأت ثائرتهم بعد لأى وصعوبة وقبلوا مهادنة المركيز .

٢٢٣ — ثم عاد البارونات فسألوا الرسل عن أخبار القسطنطينية وما يجرى بها ، فأجابوهم بأن الأمور سائرة على خير مايرام ، وأنهم قد تقاسموا المدينة وما تبقى بها من الثروة ، وحينذاك قال لهم الفرسان وصغار عزاب الجيش : « وكيف ذلك ؟ كيف وزعتم غنيمتنا التى تكبدنا

فيها متاعب جمة ومشاقا عظيمة ، وقاسينا فى سبيلها الجوع والظمأ والبرد والحر ، ثم رحتم تتقاسمونها دوننا ؟ ألا تبا لكم ! » .

ثم قال أحدهم : « سأبرهن لكم على أنكم خونة » .

وألقى أحدهم بنفسه أمامهم وقال نفس القول ، وفعل الآخرون فعله ، وبلغ بهم السخط منهم غايته ، وأرادوا الفتك بالرسل وأوشكوا أن يقتلوهم .

٢٢٤ — وأخيراً تشاور الإمبراطور وكبار رجال الجيش فيما بينهم ، ثم ناقشوهم الأمر ، وأصلحوا مابينهم جهد استطاعتهم ، وعادوا كلهم إلى القسطنطينية ، حتى إذا بلغوها لم يتمكن أى واحد منهم من استرداد بيته ، إذ لم تعدلهم تلك المنازل التى غادروها ، لأن المدينة قد قسمت واستقر إخوانهم فى أماكن أخرى بها ، حتى لقد أصبح من الضرورى عليهم أن يلتمسوا لهم بيوتا جديدة على بعد فرسخ أو فرسخين من الأماكن التى خلفوها .

دى براشو والكومان

٢٢٥ — ولقد نسينا أن نقص عليك خبر المصيبة التى نزلت بسيدى لورد بطرس دى براشو .

حدث أن كان الإمبراطور هنرى فى إحدى حملاته حين أغار جون الولاشى والكومان على أرض الإمبراطور وعسكروا على مسافة فرسخين أو أقل من معسكره ، وكانوا قد سمعوا الشىء الكثير عن سيدى بطرس دى براشو وفروسيته الرائعة فبعثوا إليه ذات يوم رسالة مع جماعة من

الرسل ينبئونه فيها أنهم راغبون كل الرغبة فى محادثته بعض الوقت، وأعطوه عهد الأمان ، فأجابهم سيدى اللورد إنه يرحب بالذهاب إليهم ومحادثتهم إن أمّنوه على حياته .

٢٢٦ — ومن ثم أرسل الولاشيون والكومان رهائن قيمة إلى معسكر الإمبراطور لضمان سلامة عودة سيدى لورد بطرس الذى امتطى إذ ذاك جواداً مطهماً وانطلق به وفى صحبته ثلاثة فرسان ، فلما صار على مقربة من جيش الولاشيين وعرف جون الولاشى نبأ قدومه خفّ لاستقباله مع بعض كبار رجالات ولاشيا وحيّوه ورحبوا به وراحوا يملؤن عيونهم بمنظره ، فقد كان فارع الطول ، وأخذوا يجاذبونه أطراف الحديث فى شتى الأمور حتى قالوا له أخيراً : « أيها اللورد : إننا نكبر فروسيتك العظيمة كل الإكبار ، لكننا نعجب كل العجب عما جئتم تلتمسونه فى هذا القطر ، وعما دعاكم للقدوم إلى هنا من بلاد بعيدة لغزو هذه الناحية ، أضاقت أرضكم حيث أنتم عن أن تسعكم وتهيء لكم سبل العيش ؟ »

٢٢٧ — فأجابهم سيدى لورد بطرس : « ماذا تقولون ؟ أما سمعتم كيف ضربت طروادة العظيمة ، وأى حيلة احتال بها القوم حتى ضربوها ؟ » .

فقال الولاشيون والكومان : « بلى سمعنا بخبرها ، ولكن ذلك كان منذ زمن سحيق » .

فقال بطرس : « حسناً ، لقد كانت طروادة ملك أسلافنا ، فجاء الذين نجوا منها واستقروا فى القطر الذى أتيناكم منه ، وإذ كانت ملك أجدادنا ، فقد عدنا لفتحها » .

ثم استأذنهم فى الانصراف وعاد إلى المعسكر .

تقسيم القسطنطينية والبلاد

٢٢٨ — حين عاد الإمبراطور ومن ذهب معه من البارونات بعد فتحهم قسما كبيرا من البلاد وقرابة ستين مدينة سوى القلاع والقرى ، شرع القوم فى تقسيم القسطنطينية، فقال الإمبراطور : يكون ربعها ملكا خاصاً له ، وقسموا ثلاثة أرباعها الباقية مناصفة بين البنادقة والحجاج .

٢٢٩ — ثم قرروا تقسيم البلاد التى تم فتحها ، فبدأوا بإعطاء الكونتات أولا ، ثم ثَنُّوا بكبار رجالاتهم الآخرين . فكان النصيب الأكبر من الأرض لأكبرهم ثروة وأعزهم مكانة وأكثرهم أتباعاً فى الجيش ، فكان نصيب بعضهم إقطاع مائتى فارس ، والآخر مائة ، وثالث سبعين إقطاعاً ، وغيره ستين فأربعين فعشرين فعشرة إقطاعات ، أما أقلهم أتباعاً فى الجيش فنالوا سبعة إقطاعات أو ستة . وكان الإقطاع الواحد يساوى ثلاثمائة دينار من دنانير أنجو ، وقيل لكل واحد من كبار الرجال : « ستنال كذا من الإقطاعيات ، وأنت كذا ، وأنت كذا ، وستعطى الإقطاعيات لرجالك ولسواهم ممن يقبلون أن يقطعوها منك . وأما أنت فتملك هذه المدينة ، وأنت تملك هذه ، وأنت تملك تلك ، وكذلك البلدان التابعة لها » .

فلما تسلم كل نصيبه على هذه الصورة ، انطلق الكونتات والبارونات لمشاهدة أراضيهم ومدنهم ، وأقاموا بها نوابهم وحراسهم .

القبض على مرزفلس وقتله

٢٣٠ — وحدث فى أحد الأيام أن كان سيدى لورد تيرى Thierri أخو كونت دى لوس ماضياً لمشاهدة أرضه ، حين التقى صدفة — فى أحد

الممرات - بمرزفلس الخائن الذى لاأعرف أين كان ذاهبا، وقد استصحب معه السيدات والآنسات وكثيرين غيرهن"، وكان يركب فى أبهة رائعة وفخامة بالغة كأنه أحد الأباطرة فى ثلة ضخمة من الخلق، فما كان من سيدى لورد ثييرى إلا أن قصده راكباً ونجح فى إمساكه بالقوة، فلما صار فى قبضته جاء به إلى القسطنطينية وأسلمه إلى الإمبراطور بلدوين الذى ما كاد يراه حتى أمر بزجه فى الحبس وبتشديد الحراسة عليه.

٢٣١ — حين صار مرزفلس فى السجن بعث الإمبراطور بلدوين ذات يوم إلى جميع باروناته ووجوه الرجال الموجودين بالقسطنطينية طالبا إليهم القدوم إلى القصر، فجاءه دوج البندقية وكونت لويس وكونت سانت بول وغيرهم، فلما صاروا بحضرته أخبرهم الإمبراطور كيف صار مرزفلس فى حبسه، وسألهم عما يشيرون به عليه فيما يصنعه به، فأشار البعض بشنقه، وقال آخرون: بل يجر فى الشوارع، وأخيراً تكلم دوج البندقية، فقال: «إن مرزفلس كان رجلا أعظم من أن يموت شنقاً، وإنه لينبغى أن تتناسب جلالة القضاء مع عظمة الرجل، ولذلك سأخبركم عما تفعلونه به، يوجد فى هذه المدينة عمودان باسقان، يبلغ ارتفاع كل منهما ثلاثمائة أو ثلاثمائة وستين قدما، فعلينا أن نصعده على قمة أحدهما ثم نقذف به إلى الأرض».

٢٣٢ — أما هـــذان العمودان فقد أخبرتك بخبرهما من قبل حيث اعتاد النساك الإقامة على قمتهما، وقد كتبت عليهما أحداث القسطنطينية (١).

(١) أنظر ما سبق ص ١٣١ — ١٣٢ فقرة رقم ١٨٤ — ١٨٧

فوافق البارونات على مقالة الدوج ، وأخذوا مرزفلس وساروا به إلى أحد هذين العمودين وحملاه على تسلقه بواسطة الدرج الذى بداخله ، حتى إذا صار على قمته قذفوا به إلى الأرض ، فتفتت هشيما ، وهكذا كان الانتقام من مرزفلس الخائن .

الروح الإقطاعية

٢٣٣ — بعد أن تم تقسيم الأراضى كما أخبرتك ، وأخذوا يفكرون فى إصلاح ذات البين وإقرار السلم بين المركيز والإمبراطور الذى اشتد لوم القوم إياه لعدم دعوته كبار البارونات لمساعدته فى حل المشكلة التى بينهما ، وكان المركيز قد طلب مملكة سالونيكا فأعطاه إياها الإمبراطور ، فلما أخذها مضى إليها هو وزوجته وجميع رجاله وتسلّم حاميتها وتملكها وأصبح ملكا عليها .

٢٣٤ — ثم طلب سيدى لورد هنرى ـ أخو الإمبراطور ـ لنفسه مملكة أندرميت الواقعة وراء مضيق سنت جورج إذا استطاع فتحها ، فأجيب إلى طلبه ، ومن ثم ذهب إليها سيدى لورد هنرى فى جميع رجاله وفتح جانباً كبيراً من تلك الناحية .

ثم طلب سيدى كونت لويس مملكة أخرى فأعطيت له ؛ وكذلك سيدى كونت دى سنت بول .

٢٣٥ — ثم سأل سيدى لورد بطرس دى براشو مملكة أخرى كانت فى يد المسلمين قرب قونية إذا تمكن من فتحها فأجيب إلى طلبه ، فتوجه إليها مع جميع رجاله واستولى على هذه المملكة وأصبح صاحبها .

٢٣٦ — وهكذا طلب الرجال الأغنياء الممالك التى لم يكن قد تم فتحها

حتى ذلك الحين . أما دوج البندقية والبنادقة فقد أخذوا جزر كريت وكورفو ومودون وكثيراً غير ذلك إلى جانب ماأرادوه ، غير أن الجيش مالبث أن أصيب بنكبة فادحة جداً بموت كونت دى سنت بول .

حرب الكومان

٢٣٧ — حدث بعد ذلك أن ثارت على الإمبراطور إحدى المدن التى كان قد فتحها واسمها أدريانو بوليس ، فلما وقف على خبر تمردها بعث إلى دوج البندقية وكونت لويس والبارونات الآخرين منبئاً إياهم بعزمه على النهوض لمحاصرتها وطالباً منهم مساعدته فى فتحها ، فرد عليه البارونات مبدين استعدادهم عن طيب خاطر ، ومن ثم تأهب هو وهم للزحف عليها ، فلما بلغوها ضربوا عليها الحصار ، وبينما كانوا معسكرين أمامها إذا بهم يبصرون فى أحد الأيام جون الولاشى والكومان فى جيش لجب قد جاءوا إلى منطقة القسطنطينية كما فعلوا من قبل ، ووجدوا الإمبراطور وجميع جيشه معسكرين أمام أدريانو بوليس .

٢٣٨ — فلما أبصر رجال الجيش حشود الكومان متدثرين بجلود ماشيتهم لم يخافوا منهم ، أو يعبئوا بهم أكثر من خوفهم من فرقة من الأطفال ، فانطلق هؤلاء الكومان ، وهذا القطيع فى سرعة وكرّوا على الفرنسيين وقتلوا الكثيرين منهم وهزموهم جميعاً فى هذه الوقعة ، وتفقد القوم الإمبراطور فلم يعرف أبداً بعدئذ ما جرى له ، كما ضاع أيضاً كونت لويس وكثيرون غيره من كبار الرجال وحشد كبير ممن لانعرف لهم عدّاً وإن كان الهالكون ثلاثمائة فارس .

٢٣٩ — أما الذين نجوا من القتل فقد فروا إلى القسطنطينية ، كما فر دوج البندقية ومعه الكثيرون وتركوا معسكراتهم وأسلحتهم كما كانوا يعسكرون امام المدينة لأنهم لم يجرءوا على الذهاب إلى هذا الطريق ، ومن ثم كان الهلاك عظيما ، وهكذا انتقم الله منهم لكبريائهم وسوء نيتهم التى عاملوا بها فقـــراء الجيش ، والمعاصى المهلكة التى ارتكبوها فى المدينة بعد استيلائهم عليها .

هنرى إمبراطورا

٢٤٠ — لما هلك الإمبراطور فى هذه النكبة استحوذ القنوط الشديد على البارونات ، ثم اجتمعوا بعد ذلك فى أحد الأيام لاختيار إمبراطور مكانه ، وبعثوا فى طلب سيدى لورد هنرى أخى الإمبراطور الذى أراد تنصيبه إمبراطوراً ، وكان لورد هنرى فى أرضه التى فتحها فيما وراء مضيق سنت جورج .

٢٤١ — حين رأى دوج البندقية ومعه البنادقة رغبـة القوم فى تنصيب سيدى لورد هنرى إمبراطوراً عارضوا فى اختياره ، ولم يقبلوا ذلك حتى حصلوا على صورة خاصة لسيدتنا العذراء مرسومة على إحدى اللوحات ، وكانت هذه الصورة ثمينة فوق كل حسبان ، وكلها مغطاة بالأحجار الكريمة الغالية ، ويقول الإغريق إنها كانت أول صورة رسمت أو صنعت لسيدتنا ، ولهم فيها اعتقاد عظيم حتى إنهم كانوا لا يعدلون بها شيئاً ما ، واعتادوا الخروج بها فى موكب يوم الأحد من كل أسبوع ، وكانوا يعبدونها ويقدّمون إليها الهدايا العظيمة .

٢٤٢ — لم يكن البنادقة راضين عن تنصيب سيدى لورد هنرى إمبراطوراً إلا إذا حصلوا على هذه الآيقونة ، فأعطاهم القوم إياها ، ومن ثـمّ توج سيدى هنرى إمبراطوراً ، وإذ ذاك تحادث هو والمركيز ملك سالونيكا كى يزوجه المركيز ابنته ،فكان له ما أراد ، ولكن الإمبراطورة لم تعش طويلا ، بل ماتت بعد فترة قصيرة .

موت جوز الولاشى

٢٤٣ — لم يلبث جون الولاشى والكومان بعد هذا أن عاثوا فى أرض مركيز سالونيكا الذى كان فى بلده، ثم حاربهم أخيراً وقتل فى تلك المعركة ودارت الدائرة على جميع رجاله ، فمضى جون الولاشى وهؤلاء الكومان بعد ذلك لمحاصرة سالونيكا ونصبوا آلاتهم لمهاجمة المدينة ، فبقيت بها للدفاع عنها زوجةُ المركيز ومعها الفرنسان وبقية الناس .

٢٤٤ — وكان فى هذه المدينة جثمان سيدى القديس ديمتريوس الذى لم يسمح مطلقاً بأخذ مدينته قسراً ، ومن ثم فقد انسابت من جسده المبارك كميات كبيرة من الزيت فكانت آية كبرى ، وحدث أن كان جون الولاشى راقداً ذات صباح فى خيمته حين جاء القديس ديمتريوس وطعنه بحربة فى جسمه وقتله ، فلما علم شعبه وجماعة الكومان بخبر موته قوضوا المعسكر وعادوا إلى بلدهم ، ثم آلت مملكة ولاشيا بعد ذلك إلى ابن أخى جون واسمه بوريس فتوج ملكا على ولاشيا وكانت له ابنة جميلة .

زواج هنرى

٢٤٥ — وحدث أن أخذ الإمبراطور هنرى — وكان إمبراطوراً صالحاً طيباً — فى مشاورة باروناته عما ينبغى عليه عمله إزاء هؤلاء الولاشيين والكومان الذين كانوا لا يزالون يشنون الحرب على إمبراطورية القسطنطينية والذين قتلوا أخاه الإمبراطور بلدوين ، فنصحه البارونات أن يبعث إلى بوريس - هذا الذى كان ملك ولاشيا - يسأله يد ابنته الزواج بها ، فرد عليهم الإمبراطور إنه لن يتخذ زوجة لها مثل هذا الأصل الوضيع ، فقال له البارونات : « بل يجب أن تفعل ذلك يامولانا وإننا نلح عليك أن تعقد السلم معهم ، لأنهم أقوى الشعوب وأعنف أعداء الإمبراطورية والبلاد » .

٢٤٦ — وطال كلام البارونات فى هـــذا الصدد حتى بعث الإمبراطور فى النهاية بفارسين من وجوه رجالاته بعد أن ألبسهم أفخم الثياب ، فلما وصلوا إلى هناك أراد القوم الفتك بهم ، إلا أن الرسوليين تحدثا إلى بوريس هذا ، فأجاب بأنه مرسل ابنته عن طيب خاطر إلى الإمبراطور .

٢٤٧ — ثم جهز بوريس الملك ابنته أفخم جهاز وزودها بأحسن ملبس وأنفذ معها قوماً كثيرين وأرسلها إلى الإمبراطور ، كما أمر بإرسال ستين حصاناً إليه محملة بالكنوز من الذهب والفضة والحرير والجوهرات الغالية ، ولم يكن ثم حصان إلا وهو مغطى بالساميت القرمزى الطويل

الذى كان ينسحب مسافة سبعة أو ثمانية أقدام وراءه ، ولم يحدث قط أن سارت الجياد فى طرق موحلة أو صعبة كهذه ،ومع ذلك لم يتمزق أى ثوب من أثواب الساميت هذه ، بل وصلت رائعة فخمة .

٢٤٨ — فلما عرف الإمبراطور أن العروس قادمة خرج لملاقاتها وبصحبته البارونات ورحبوا بها و بقومها أجمل ترحيب ثم تزوجها الإمبراطور .

ما لبث الإمبراطور إلا قليلا حتى تسلم دعوة للمضى إلى سالونيكا وتتويج ابن المركيز ملكا بها ، فذهب إلى هناك ، فلما فرغ من تتويجه نزل به المرض ومات بها مما كان نكبة فادحة جداً وداعية حزن مقيم .

* * *

٢٤٩ — لقد سمعت الصدق فيما يتعلق بالاستيلاء على القسطنطينية ، وكيف أصبح بلدوين كونت فلاندر إمبراطوراً عليها ، ثم من بعده أخوه سيدى هنرى ، شهد بذلك وسمع ما جرى من كان حاضراً إذ ذاك وهو روبرت كلارى الفارس ، وقد أمر بتدوين الصدق ، وكيف فتحت .

٢٥٠ — وعلى الرغم من أن روبرت ربما لم يتفنن فى رواية الفتح كما يقصها الراوى البارع ، إلا أنه قد التزم جادة الحق غير حائد عنه ، على أن هناك كثيراً من الأمور الحقيقية التى لا يستطيع تذكرها كلها ؟

* * *

فهرس

لمحتويات كتاب « فتح القسطنطينية »

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة